السقف النبيل للأحلام

منشورات عندليب

www.3ndleeb.com

info@3ndleeb.com

(+249) (916) (099) (333)

(+249) (122) (216) (333)

. . . . . .

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر – السودان

967.4304 مصطفى خالد مصطفى، 1975-

م ع. أ

السقف النبيل للأحلام/ مصطفى خالد مصطفى.- ط1. – الخرطوم: منشورات عندليب للطباعة والنشر والتوزيع، 2023.

128ص؛ 21سم.

ردمك ISBN

1.ت. أ. العنوان.

. . . . . .

اسم الكتاب: **السقف النبيل للأحلام.**

الكاتب: **مصطفى خالد مصطفى.**

النوع: **مجموعة قصصية.**

مراجعة وتحرير: **زياد محمد مبارك.**

تصميم الغلاف: **عبد الرحمن محمد خلف.**

رقم الإيداع: **/2023م**

. . . . . .

الطبعة الأولى 2023

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر©

الآراء الواردة بالكتاب تعبر بالضرورة عن رأي المؤلف

مصطفى خالد مصطفى

السقف النبيل للأحلام

مجموعة قصصية

الفهرست

القسم الأول (القصص القصيرة):

فوق مستوى النوم.....9

ليلة طويلة في البحث عن آمنة.....15

بُم.. بُم.....22

حرب شارع البهلوان.....26

طاسة وطمناطة.. الفي البحر غطّاسة.....33

جئتُ لأقول الحقيقة.....37

لحظة عجيبة.....46

منامات ساعة كوكو.....51

عنبر الحالات الحرجة.....54

عيون خديجة.....60

مرايا داخليّة.....64

عصر الدجاج.....72

القسم الثاني (الأحلام)

.....78

القسم الأول

القصص القصيرة

فوق مستوى النوم

خمسُ رتائن تضيءُ الساحة الرملية تملؤها ضوءً برتقاليًا يقهر حلكة الليل، والليلُ في أوله كان والمجالسُ ما عُقِدَت بعد، والصغار ناموا وحلموا، خمسُ رتائنَ كبيرة، مكوّرة وعلى حواملَ نحاسيّة نظيفة، زبيداي وحفصة ترجّلا من ناقتهما وربطاها إلى شجرةٍ عملاقة، لعلها أكبر شجرةٍ في الوجود، شجرةٌ خرافيّة لا يعرف الناسُ إلى أي جنسٍ من الأشجار تنتمي، قالوا إنها تتغيّر كل جيل؛ فقد شهدها حمّاد ومريم في طفولتهما شجرة نخيل، وألفتها طفولة دينق وجاكلين شجرة باباي، وأكّد موسى وكلتومة أنها حتمًا كانت تبلديّة، تكثر الحكايات والأساطير هنا، في أم محجور، ولا يهم إن حدث فعلًا ما يُحكى أم لا.

الرمال الآن ناعمةٌ باردة، سيلٌ من النجوم يزحف ببطء على قبة السماء مرصّعًا ثوب الليل. آنَ للسُمّار أن يأتوا، وآن لحفصة أن توقد جمراتها وتقلي بُنّها، وسألَتْ في قلقٍ زوجَها زبيداي: ألم يُؤذن لنا بعد؟، فقال زبيداي بصوته الأجشّ القديم وهو يفتح عينيه العمشاوين فيصير بصره حديدًا: الآن.. الآن يا حفصة. ثم وضع إصبعين في فمه وأطلق صفيرًا عاليًا دوّى في فضاء الكون، اتقدَ القمر وشعشع كأنه كان ينتظر هذا التصفير، هبّت نسائمُ عليلة رقّصَتْ أوراق الشجرة وأشعلتْ لهَباتِ حفصة التي ستقلي عليها البُن، جاء من أحد الأزقة المفضية إلى الساحة دينق راكضًا وخلفه جاكلين، وقفز من العدم موسى ورمى عكّازه بعيدًا وتمطى حتى طقطق ظهره، ووراءه ظهرتْ كلتومة، ظهرت كأنما كانت مخفيّةً بقوةٍ عُلويّة، أما حمّاد ومريم فخرجا من وراء الشجرة الخرافيّة راكضين كأنما كانا ينتظران الجميع سلفًا. خمسُ رتائنَ وهّاجة موزّعةٌ في حلقةٍ

دائرية على محيط الساحة، أغرتهم بالانقسام لفريقين، زبيداي وكلتومة وجاكلين معًا، حمّاد ودينق ومريم معًا. عجبًا لتجانسهم هذا وهم على تلك الاختلافات الكبيرة، فدينق وجاكلين فَاحِمان كأنهُما امتدادٌ جسمانيٌّ لليل، أما حمّاد ومريم ناصعـان مشرقان كأن الشمس ستطلع من وجهيهما، زبيداي الأعمش وحفصة قصيران نحاسيّـا البشـرة عليهما مخايلُ دهاءٍ وقسوةٍ بدويّـة، وموسى وكلتومة ضخما الجثّة فضِّيـا اللون بحركاتٍ راقصةٍ بتلقائيّة.

ورسم حمّاد على الرمل مربعًا كبيرًا وقال لهم: الليلة سيبدأ فريقي بحراسة المربّع، وفريق زبيداي سيكون هو المُطارَد. ثم لعبوا، لعبوا طويلًا كأنهم يكتشفون اللعب لأول مرّة، يكتشفون في اللعبِ اللذّةَ تحديدًا، يعيدون اللعب كلما فرغوا إلا أنّ اللعب يحتفظ برونق الاندهاشِ الأوّل في كل مرة، حفصة لازمَتْ بُنّها تحت الشجرة وموسى حمل ربابته كالعادة وجعل يغنّي بصوته الحنون الهامِس، كلاهما لا يحب اللعب، مذ كانا صغيرين. جاكلين كانت غزلانيّة الحركة، مريم تقفز كأنها بنتُ عشرين، ودينق نمر. قالت جاكلين لدينق: من يراكَ نهارًا تشكو ظهرك لا يعرفك الآن، وقال لها دينق: لا تُكثري القفز يا شمطاء فينكسر حوضك، وظهرت لدينق صلعةٌ ملساء تَبْرُق مع ضوء الرتائن الراقص، انتبهوا لها كأنها ما كانت موجودة منذ البداية، كما يحدث كل ليلة، وغنّى موسى بربابته:

"تـبِـشْ تِبِـشْ عجّـور

الصـلعة تـولّع نـور

يا دينق حا تولّع نور".

وقال حمّاد: زبيداي الأعمش.. أتريد اللحاق بي أنا؟، فقال زبيداي قبل أن ينطلق كالسّهم:أنا أعمش في الواقع، لكن ليس في أمّ محجور هل نسيت؟، وقالت حفصة وهي تقلّب بنّها الذي بدأ يطقطق: اقفزوا الآن اقفزوا، وستشتكون غدًا من آلام الظهر والمفاصل يا عجائز، حدّكم هو الصباح لا تنسوا.

خمسُ رتائن لَأْلاءَة، ينسكبُ نورها على الساحة الرملية ويمنحها مظهرًا جَمريًا في قلب الليل، والليلُ انقضى رُبعه، وجلس الجميع تحت الشجرة ودارتْ بينهم فناجيل القهوة، وانضمّ لهم موسى صادحًا:

"قهوة منك لوحة

يسحر فيها بُنّك

ينصهر فيها الدوا".

وقالت مريم في حسرة: لماذا لا تدوم لنا أم محجور؟. فوضعت كلتومة فنجالها على التراب وقالت: اليوم لعبنا كثيرًا.. غدًا لن نقومَ من أسِرّتنا. وقال حماد: أم محجور كل أملنا في هذه الحياة، ننسى فيها أوجاعنا وتزول فيها أمراضنا. وقال دينق: كبرنا كثيرًا يا جماعة. وقال زبيداي بصوته الفخيم: اليوم أرى وجوهكم تجعيدةً تجعيدة وغدًا لا أرى إلا الضوء فقط. وقالوا جميعًا: سبحان الذي رزقنا أم محجور. ثم ثرثروا طويلًا، يتمدد الكلام كلما أوشكوا على السكوت، اجترّوا ذكرياتٍ بعيدة، مُذ كانوا أطفالاً، ثم مراهقين، ثم أزواجًا. مهلًا ألم يكن زبيداي مغرمًا بمريم؟ ألَم يسعَ الأطفال كثيرًا بين حمّاد وكلتومة برسائل الحب والغرام؟، كانت كلمةً في سوق الحي العتيق ألقى بها آدمُ أمام الملأ: كل شخص يتزوّج من قبيلته فقط، ثم كانت حفصة لزبيداي، ودينق لجاكلين، وحمّاد لمريم، وموسى لكلتومة. أثّر الزمان في أجسادهم لكنّ أرواحهم ما

تأثّرتْ، حكوا قصصًا شتّى، ما جرى لخروف جاكلين، والجنِّيـة التي تجسّدت في شكل جَمَلٍ في طريق زبيداي إلى البحر، واللالوبة المسكونة التي خرّت ساجدةً لوالد موسى، والبقرة العجيبـة التي قدمها دينق مهرًا لجاكلين والحمارة السكرانة التي شربت البيرة في عُرس حمّـاد ومريم، و...، مهلًا، لماذا يذكرون الآن تلك القصة بالتحديد، القصة القديمة المؤلمة التي نسفتْ أم محجور من الوجود، قال حمّاد في استياء: الله يجازي من كان السبب. وقبض الرمل في حسرة. وقالت لهم حفصة وهي تلقي مزيدًا من أعواد الصندل الأحمر في المبخر الفخاري: يا جماعة، لماذا الزعل الآن؟ ألسنا في أم محجور؟، فقال زبيداي: الآن فقط.. كله من آدم. فقالت جاكلين: ربما كان آدم يريد الخير لأم محجور. فاستشاط دينق غضبًـا: لكنه قضى عليها وعلينا.. إنه مثل السوس لا يشبع ولا يموت.. قلنا له إننا لا نريد إقامة السّد.. قال إنهم سيعوضوننا وسيدخلون الكهرباء إلى بيوتنا وسنسكن في بيوتٍ أفضل وسيعبّدون طرقنا ويسوونها.. كلام فارغ، أول شيءٍ فعله هو أنه باع حيّنا وفصله من بقيـة الأحيـاء بحجة أنه الأقرب للسد. فقالت مريم: آدم أعماه الشيطان عن أم محجور.. بذمتكم أهناك في الدنيا شيءٌ أجمل من أم محجور؟ فقالوا معًا: لا والله. وقاموا من على الرمل ممتلئين برائحة البُن الفوّاحة، وجعل كلٌّ من جاكلين ومريم وكلتومة يغنين ويصفقن والرجال (عرضوا) و(بشّروا)، وغنّى موسى كالكيروان:

"من فريع البان

اليسوح نديان

الله يا سـلام".

خمسُ رتائن تجهر الناظر إليها، تملأ الوجود ضوءً عجيبًا ينسفُ الليل، والليل قد انتصف والحُجّاج ما انتبهوا، يصطفّون خلف بعضهم في صفٍّ واحد، تستلقي ظلالهم على الرمل الفضي البارد، يواصلون الغناء والرقص غير آبهين بما كان وما سيكون، صدورهم خفيفة، يوشكون على الطيران، اندحر الخوفُ من قلوبهم، الخوف من الموت والمرض والمجهول وعجز الكبر والوحشة بين الأولاد والأحفاد.

ثم جاعوا وجلسوا على الرمل تحت الشجرة فظهرتْ أمامهم بروشٌ بها ما لذّ وطاب، قالتْ مريم غير مصدقة: لحم!.. شيّـة ضأن!، وهتفت كلتومة: وتُمنة لبن مقنن، وصاح حمّاد: زجاجة بيرة وقدح مريسـة!، وقال دينق مضطربًا: رغيف يا جماعة رغيف.. بالسمسم والكمّون وقشور القمح!، وقال زبيداي: أم محجور هي الجنّة.. لا يخدعكم أحد بغير ذلك. ومرّر موسى أصابعه الطويلة الرقيقة على أوتار الربابة وضرب على أنغامها ألحان:

"أيّام زمـان .. كانـت أيـام

لي فيهـا قصّة.. قصّة غرام".

وقالت حفصة: كُلوا جيّدًا حتى تعدموا النفَـس.. فغدًا الصباح اللقمة بقدرة قادر.

خمسُ رتائن ينزُّ منها نسيجٌ ضوئيٌّ نُقش على خيوطه تاريخ أم محجور، ألويةٌ ورايات، إحَنٌ وغارات، و... آدم. أحداثٌ جِسـام غيّـرتْ كثيرًا في أم محجور تهمسُ بأشجـانٍ قديمـة في أذن الليل والحي العريق.

وصاحبنا موسى أحسّ اقتراب الفجر فاضطرب صوتُه وغيّـر الأغنية وقال:

"في الضواحي وطرف المدايـن

يلا ننظُـر شفـق الصبـاح".

فانخطفتْ قلوبهم. قال حمّاد: ستبدأ آلام المفاصل بعد قليل يا الله. وأشارتْ حفصـة بسبابةٍ كالسّهـم نحو القمر وقالت: بدأ ينطفئ. وسكنت النسائم وأمسكتْ أوراق الشجرة عن الرقص، قالتْ جاكلين وقد غلبها إخفاءُ مخاوفها: سأعودُ الآن وحيـدة في ذلك البيت. وقام موسى يبحث عن عكّازه بعد أن ركن الربابة على جذع الشجرة، بدأ زبيداي يشعر بخفوتٍ في بصره وقال لحفصة: جهّزي الناقة للرحيل، وقالتْ كلتومة: أنا خائفة يا جماعة.. خائفة أن تكون هذه المرة هي الأخيرة!. والتفتوا جميعًا إلى زبيداي وقالوا له: متى نعود لأم محجور؟ فقال زبيداي: ربما غدًا أو بعده أو بعده، هي موجودة وتحيا ما حييت بها الحكاية. ولاح في الأفق خيط الفجر فتدرج لون السماء، أزرقُ مُلْيِل فنيليٌّ فاتح فأحمرُ قانٍ، انطفأت لهبات حفصة، بدأ ظهر مريم يتقوّس، ودينق هوى على الأرض فاقدًا قدرته على المشي من جديد. وبرز قوس الشمس وراء خط الأفق، وانبعثت أشعتها تُبهرِج الدنيا. وتحاضن كلٌّ من جاكلين وحفصة وكلتومة ومريم، وتعانق الرجال مودعين بعضهم، وضربت أشعة الشمس عيني زبيداي فأصبح يرى بياضًا في بياضٍ في بياض.

ليلة طويلة في البحث عن آمنة

قال المسؤول بثقة:

_ الخريف دهمنا العام الماضي، لكن هذا العام نحنُ له بالمرصاد.

وأشار، عدًّا على أصابعه، إلى مجموعةِ استعداداتٍ قامتْ بها الحكومة، قالها تِباعًا وبسرعة كأنه حفظها صباح اليوم، منها: إعادة حفرِ الخيران لتصريف المياه من الأحياء، إنشاءُ سدودٍ رمليّة ستوزّع قريبًا على شريطِ الشاطئ، الاستعداد التام لردم البرك التي ستنشأ عقب الأمطار، وستُرش مجاري التصريف بالمبيدات مكافحةً للدوسنطاريا والملاريا. بعدها سكتَ سكتةً خفيفة مستجلبةً لتصفيق الحضور فصفّقوا وكبّروا. وقبل أن تبرُدَ الأيادي قام من بين الجلوس عبد الصمد يُقلوِظُ عمامته حتى غاب معظمُ رأسه داخل ثنياتها، رجلٌ سمحُ السّمت يعرفه أهل المنطقة، وسأل المسؤول:

_ وما الخطّة لو فاض النيل مثل فيضان ثمانية وثمانين، وهل ستوقفه السدود الرمليّة وتصرِّفُه المجاري؟

تنحنح المسؤول وعدّل جبته وقال:

_ تفاءلوا خيرًا يا جماعة (وضحك ضحكة خفيفة خضّ أثناءها عقله بحثًا عن أنسب رد) لكن على أي حال، احتمال كهذا لن يغيبَ عن سيادةِ الوالي والمحليّة.. لا بد أن هناك خطةً إنقاذيّة لو فاض النيل كفى اللهُ الشر، هل من سؤالٍ آخر؟

لم يجلس عبد الصمد رغم الطريقة التي ألقى بها المسؤول سؤاله إنهاءً للحديث، وواصل قائلًا:

_ المبيدات وحدها لا تقي الإصابة بأمراض الخريف، لو ما غرقنا مياهًا سنغرق شواطًا، يجب توعية الأهالي سبل الوقاية من الدوسنطاريا، وبالنسبة للملاريا يجب توفير ناموسيّةٍ على الأقل لكل بيت.

أكّد المسؤول أن المبيدات متوفرة وأن الناموسيات جاهزة تنتظر في مبنى المحلية أن توزّع وقال: هل من سؤالٍ آخر؟.. لا سؤال؟.. أعتقد أنّ هذا يكفي، السلامُ عليكم. نزل عن المنصة وركب سيّارته، أخبرهم وهو يرفع زجاج النافذة بأنه سيأتي غدًا ليتابع التوزيع إذا شاء الله ولم يُسافر خارج البلاد لحضور مؤتمرٍ مهم، وإذا سافر فسيقوم مقامه في التوزيع نائبه.

ودارت الأيام في لولب الزمن، تعرّت الأشجار وجفّ ريقها، والمسؤول لم يرجع ونائبه لم يظهر.

نزلتِ الستون ثقيلةً على عبد الصمد، لكنّ حسين، صديق عمره، استخفها. يقفان الآن عند المشرع يتأملان حال الضفّة، لا الضفة هي الضفة القديمة حيث كانت تزدهرُ بشتّى الزروع من طماطمٍ وعجور وجرجير وبطيخ، أحالتها يد الزمان وأيادي المسؤولين يبابًا وبقيةً من أثر، ولا الجسدان هما ذانك الجسدان المفعمان حيويّةً الممتلئان صحةً، والناس، ما بال الناس؟ ليسوا أولئك القدامى الطيبين الذين يعيشون كفافًا ويعبدون الله على السجيّة، أمّا النيل فكان النيل نفسه. نطق عبد الصمد من بين أسنانه:

_يا حسن، يجب ألا نقف ننتظر الموت هكذا.

_ننتظر رئيس اللجنة. (أجاب حسين بلا مبالاة).

تأفف عبد الصمد ولوّح بكفّه في حركة يائسة.

_يا عبد الصمد، كبرتَ كثيرًا على حمل الهم، تتصرف كأن المنطقة ليس فيها رجل غيرك، ثم إنك تخاف من شيء قد لا يحصل، دعنا من هذه الأوهام.

_وإذا فاض النيل؟ هل أذكّرك؟ أأذكّرك بما حصل؟

_عبد الصمد الله يرضى عليك، الدنيا عيد، واليوم زواج بنتك، وما حصل حصل قبل سنوات، لماذا تتذكّره الآن بالذات؟

_الخريف هذا العام غير.

ومضى النهارُ والشمسُ مكسوفةٌ تأبى الظهور.

وفي قلب الليل، لم تنجح الزغاريد أو أهازيج الغناء في التخفيف من حدّة قلق عبد الصمد، حضر عقد القِران مخطوف البال، تلقّى المباركات بتحايا مقتضبة وابتسامات صفراء، عقله يتوهم كل جلبةٍ أنها قهقهاتُ رعد، يترصّد حركةَ الغيوم ويتصيّد نشرات الطقس، عقله آلة تحسب الاحتمالات وتبحثُ عن الحلول، تقيس مدى نجاحها وتسبرُ أغوار فشلها. فاتح أهل الحي في الموضوع غير مرّة، أخبرهم أنهم يجب أن يتعاونوا وألا ينتظروا المسؤولين، لكنهم لم يأبهوا لتحذيراته المتكررة، ورثَوا لحاله الذي عدوه نتيجةً لما حدث يوم زواج أخيه قبل سنوات؛ كانت ليلةً من ليالي الأضحى، وعبد الصمد يشرف على التحضيرات لزواج أخيه الأصغر؛ هو من اشترى الثور وهو من استقل بوكسي حسين وذهب إلى السوق المركزي لإحضار الخضروات والفواكه، وهو من سوّى الأرض مع الشباب بالتراب حتى ثبتت بعد أن خربتها أمطارٌ مفاجئة ليلة الحنّاء، كان هكذا دومًا، يتحمّل مسؤولية كل شيء ويحسب حسابًا لكل

شيء، لكنه ذلك اليوم ما توقّع أبدًا ما جرى. عندما سيق السحابُ لمصيرٍ مجهول قُبيل الغروب، اصطبغ الأفق بصفرة ثم بحمرة، وهشّ الجميع لأن الزفاف سيتمُّ بسلام. يذكر عبد الصمد فيما يذكر، أن الحفل كان ساخنًا والناس هائجون، السكارى يقفزون ويحطّون ويتشقلبون، وفجأةً، وجد نفسه على الأكتاف مع أخيه، المنظرُ مُبهجٌ من فوق، الناسُ مُهندمون، طربونَ وسُعداء، والمغنية يفيضُ إحساسها ويُحمي ساحة الرقص، الدنيا تُنصِتُ وتتفرّج، الأيادي تلوّح وتُبشّر، الزغاريد تتضافر مصدرةً موسيقى خاصة تُمازِج الغناء، مصابيح الزينة لاحت كأنها نجومٌ تتراقصُ على لحنٍ شعبي، والعريسُ شمسٌ والعروسُ قمر، والراقصون كواكبٌ في فلكٍ شاسع، والأقدار تنسجُ حبالها وتنصبُ حبائلها والجميعُ غافلون.

لم يُنزَل من الأكتاف إلا إثر صراخ امرأةٍ أطاحها الطين، حينها، لاحظ عبد الصمد تسرُّب الماء من بين أرجل الراقصين والكراسي، من أين يأتي هذا الماء؟ تساءلوا، هل هناك خراطيم يتسربُ منها؟ هل طقّت المواسير وخطوط التوصيل؟ الماء يدخل خيمة العرس كأنه يخرج من تحت الأرض، لا، من كل الاتجاهات، ثم مثل اللكمة، لطمت عبد الصمد قذيفةٌ مائية دخلت عبر فرجةٍ في الخيمة، غرفهم موجٌ هادر، وأطبقت عليهم عيونُ الماء، انقطع صوت المغنية وتباطأ العزفُ على الأورغان والدقّ على الطبول، تصادم الناسُ ببعضهم، وبدل الزغاريد علتِ المناحات، لاحت لعبد الصمد كراسي الحفل كأنها شواهد، تهاوت الخيمة وبركت، أحسّ، وهو يعافر كي ينجو، بطعم الطين حلوًا في فمه، سالت جدران الزبل والقش وجرت مع التيّار وامتزجت، انهدّت الآبار والحمّامات أمام البيوت، صوت انهدادها يخرجُ من حنجرة الموت، السيارات تقلبت سقفًا على بطن وبطنًا على سقف، طفت الكراسي، قدور الطبخ،

الحقائب والملابس، الناس يستنجدون ولا مجير لأحد، وصاحبنا عقله جامد وأطرافه تبحثُ عن حل، شَرّ نظره لأبعد نقطة يستطيع رؤيتها بوضوح، يبحثُ عن أخيه، يشرقُ الماءُ لهاته، يكح، يهتزّ صدره، يلمحُ طرحة الزفاف طافيةً تتموّج، طلع من تحتها حسين مخنوقًا يُطلق الماءَ من أنفه وفمه، صرخ أحدهم: المسجد.. المسجد، عالٍ ومتين. فدخلوه بعد لأي، أغلقوا عليهم نوافذه وأبوابه، رجالًا، أطفالًا ونساءً، بعض الحريم يستنجدن بالله وبعضهن بشيوخ الطريقة، وقال عبد الصمد لحسين وهو يحكّ أضراسه ببعضها ويدفع باب المسجد بكل قوته: إن غلَبَنا سنموت كلنا. جذبه صوتُ ضربات النهر على النوافذ والأبواب، وصياحُ عجوزٍ تحتضن حفيدها: النيل يطلب فدياته يا جماعة، أربعة عشر شخصًا يأخذهم النيل كل خريف، وإذا لم يحصِّلهم يفيض. وظن أناسٌ أن بها خرفًا وظنّ أناسٌ أن الدَرْوشة هبطت عليها تحت قبة المسجد الآن.

***

وبينما صاحبُنا راقدٌ على سريره الآن تذكّر كلام تلك العجوز قبل سنين، النيل كل خريف يموتُ فيه كثيرون، تطوف أخبارهم على الدكاكين ويتداولها الناس مع البضائع في السوق. وهو راقدٌ على سريره، يسمع نشرة الأخبار ولا يستمع إليها كانتْ تأتيه أصواتُ الغناء من حفل عُرس ابنته، مكث به حتى جيء بها عروسًا في فستانها المبرقش، ملأ عينيه من حلاوتها، ضمّها وشمّها، بارك لزوجها وأوصاه بها خيرًا، وخرج إلى حوشه مستسلمًا لهمومه مرّةً أخرى، يذكر جيّدًا أن في ذلك الخريف لم تكن هناك أية أخبار لا من قريب أو بعيد عن غرق بعضهم، ولا هذا الخريف الآن، اعتدل في جلسته، رصد قوائم الجنائز التي شُيعت مذ دخل هذا الموسم، لم يكن بينها من مات غرقًا، والظروف الآن

نفس الظروف القديمة، الدنيا عيد والأجواء أجواء عرس والموسم خريف، ارتجّ قلبه لما رأى إيماضًا، جذبه صوت المذيع على الراديو يتلو أخبارًا عاجلة: جاءنا البيان التالي.. سيولٌ جارفة أغرقت القرى الطرفية المجاورة للنيل في ولايتي الجزيرة والخرطوم. نزوحُ مئات الأسر من منازلها بحثًا عن مأوى، وتعطّل الطلبة عن التعليم نظرًا لانهيارات المدارس. ولاحت إيماضة أخرى، قهقه الرعد بجلافة، انخلع قلبه من مكانه، فار الدم في بطنه وأزبد، وجاء صوت المذيع مرةً أخرى: عروس النيل أسطورة لم تنته مع الفراعنة، يكتب أحد الصحفيين أن النيل غاضبٌ من المسؤولين لأن أحدهم سرق عروسه. عبد الصمد يستمع ويفكّر، وعقد رابطًا عجيبًا بين نجاتهم من الفيضان ذاك العام والحسناء بنت ياسين التي غرقت في النهر عروسًا. قام وجلس، تحرك في الحوش كيفما اتفق، لا حل، وجه أخيه يلوح منتفخًا جاحظ العينين، خرير النهر القريب يسمعه هديرًا، النيل ساكنٌ منساب في رحلته السرمديّة وعبد الصمد يراهُ بركانًا سينفجر في أية لحظة، تصاوير الماضي تنهش عقله، هواجس الليل تخنق قلبه، أسيفقدُ عزيزًا مجددًا؟ ربما كان القادم هو حسين صديق عمره، ربما أحد جيرانه، ربما هو، ربما هي ابنته، والنهرُ ماردٌ جبّار سيدكّ المدينة بضربةٍ واحدة.

وفي ذروة الخوف المتنامي اتقدتْ في ذهن عبد الصمد فكرةٌ عجيبة.

***

عندما بدأ الناس يسألون عن العروس، أخبرهم حسين أن أباها طلبها في شيء ضروري. لا يعلم حسين سبب استدعاء عبد الصمد لآمنة في تلك الساعة على انفراد، ولا طبيعة الكلام الذي يمكن أن يدور بينهما، لكن الذي يعلمه

هو أن صديقه على وشك أن يخرُف، جذبه صوتُ امرأةٍ تناديه، أخبرته في أذنه لاهثة: حسين... العروس... ركبت بوكسيك وقادته.

_ من تقولين؟ هل أنت صاحية يا وليّة؟

_آمنة بنت عبد الصمد، بزفافها تسوق البوكسي.

لم يجد بوكسيه، لعن الساعة التي عرف فيها عبد الصمد، الخبر تسرب وتناقلته الأفواه وعدلت فيه، تكهربت أجواء العرس، خرج حسين مع مجموعة من الرجال للبحث عن العروس، نسيَ عبد الصمد في تلك الساعة وكرِهَ سماع صوته، أخبره المارّة أن البوكسي اتجه نحو النهر وكانت تقوده عروسٌ في زفافها، عندما وصل الجرف برفقة الرجال وجد البوكسي فارغًا يقرقر، ينفث كرات الدخان ويرتجف ارتجاف المقرور، التقطت عيناه طرحةَ الزفاف طافيةً على وجه النهر الهادئ، حوقل، لعن إبليس، وقضى مع الرجال ليلة طويلة في البحث.

عند الصباح تنادى الحوّاتة عند مشرع المراكب، قالوا إن النهر لفظ جثةً في زفافها، كانت تنكفئ على بطنها ولم تقترب منها يد، إلى أن وصل حسين وعلى عينيه آثار السهر والتعب، أدار وجهها، شُدِه، حاول تكذيب عينيه، قال بلسانٍ ثقيل: عبد الصمد!

بُم.. بُم

"عوى الذئبُ
فاستأنستُ للذئبِ إذ عوى
وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ"!
الأحيمر السّعدي

_ بُم... بُبُبُم...

يدهمكِ انفجارُ البراميل التي باضتها الطائرة، تفزع ميرا قبلك، ترتجُّ المغارة كأنما ستنفلقُ عن سرٍّ عظيم، يلعب الفأرُ في عبك، من هنا، ومن هنا تمامًا، يتضح أن نومكِ لم يكُن خفيفًا كما كنتِ تدّعين، لو أنه كان كذلك لاستيقظتِ منذ أن دخلت الطائرة حدودَ المنطقة، صوتُها (طارُ) شؤمٍ متفقٌ عليه، نذيرٌ لموت أكثرِ الأحداثِ ألفةً في هذه البراري المحمومة، الضرورةُ العبثية غير الموقوتة. يشقّ عليكِ تحمُّل الظلام والسخونة ويشقّ على ميرا أيضًا، تهتفين باسم يونس، ظل يشغل بالك مؤخّرًا بسبب مرضه، طلبتِ من إسماعيل ألا يشدّ عليه في الطريق، لكنه يرى أن القسوة هي الأفضل للولدين هنا. تتذكرين، قال لكِ: أليسَ الخلاء خيرٌ من المعسكر؟ أجبتِه بانزعاج: لا، المعسكر خير، هناك مكان ننامُ فيه، قال لكِ: الخرطوم أفضل يا ذكيّة.. الخرطوم هادئة وكبيرة، لن يعرفنا أحد ولا حتى الشيطان، أجبتِه: الموتُ خيرٌ من الحياة في هذا المكان يا إسماعيل، لكنه قال: هذه المغارة خير من الموت في المعسكر يا عزيزة، كلها يومين أو ثلاثة، يصل إلينا أخوك من الخرطوم ونذهب معه، لو أنني أعرف الطريق لمشيتُ إليها مشيًا. هناك لا أحد يفكّر بأحد، لن نستيقظ

على صوت الأنتنوف، سنذهب للحدائق والمتنزّهات، سيدخل أولادنا المدرسة، اصبري فقط.

_ بُم.. بُم..

تنتشر في الفضاء غلالة ضوءٍ تقهر حلكة الليل، تنتفخ عروقك، تقومين على طولك بجهد، ميرا تكبر بسرعة وتضايقك، تتشوّق للحياة ويجب أن تستقبلها في الخرطوم، هكذا أصرّ إسماعيل، تقررين ألا تعملي بوصيته، مخاطرةٌ كبيرة أن يذهب مع الولدين برفقة صديقيه للبحث عما يؤكل في هذا المكان وهذا الوقت، في مدخل المغارة تطرق أذنيكِ خشخشةُ قدمٍ على العشب اليابس، تظنينها إسماعيل مع الولدين، لكنّ إسماعيل يصفّق عند قدومه، تستعيذين بالله، تطوقين ميرا، تخافين أن يكونوا هم، تسمعين خَفْخَفةً ضاحكة، تنفرج أساريرك، ويبتعدُ ضبع الخلاء الأرقط غائبًا في الظلام.

قال لكِ ذات ليلةٍ مُنسِمة وأنتم على سطح المغارة:

_الخرطوم لا تشبهنا، الأفضل أن نسكن أم درمان.

سألتِه: ألن يسمع الأولاد صوت الأنتنوف؟

_ولا حتى في الأحلام.

_وكيف سنعيش؟

_ عزيزة، المهم خروجنا من هنا.. بأي ثمن.

عددتِ له على أصابعك مصائر الأولاد: يونس دكتور، سعيد مهندس، وميرا أستاذة. قاطعكِ: لالا، سعيد مهندس، يونس تاجر، عقله عقل سوقٍ مثل أبيه. ووضع كفه على بطنكِ المكوّر وقال: وميرا دكتورة.

باسَ رأسكِ، رقدتِ في حضنه مع الولدين، رغم هزاله احتواكم بصدرٍ دافئ، قال لكِ: رأيتُ حلمًا غريبًا، جنديٌّ يصوّب نحوي سلاحَه، لا يتردد في إطلاق النار عَلَي، تندفع رصاصته نحوي بسرعةٍ رهيبة، أستطيع متابعتها من فوهة السلاح إلى أن تصل إلى صدري، وهناك، تخيلي، تنفجر قرب صدري يا عزيزة وتخرج منها أبخرةٌ حمراء وصفراء وأشرطةٌ ملوّنة، أضحك أنا كالمجنون.

قلتِ مازحةً بصوتٍ فاتر: كانوا يحتفون بإبادتنا بالتأكيد.

اعترك يونس وسعيد بين حضنيكما، فاجأتكِ قبضةُ يونس الصغيرة وهي تفرد سبابتها ووسطاها، قال يونس لأخيه: بيو بيو... قتلتك، لا تتحرّك. صَفَعَتْهُ كفُّ إسماعيل بارتعاش.

الدخان يعرجُ كأسطورةٍ مبتعثة، الظلام يخنق اللهب، أشجار التبلدي تتّقد وتتهاوى كنيازك راجمة، ثم... بُم، بُبُم، دُم، يتلوّن الأفق بلون النهار، ينطلق من الغابة شُعاعٌ باهرٌ يدحر قبضة الليل، بين الغبار والدخان وطقطقات التبلدي تطير الغزلان والأرانب نافقةً وترتطم بالأرض مشويّة، تشدين ساقيكِ، تنتعلين الهلع، تنسين مواربة المغارة بكومة الباراريس الشائكة، تهرولُ قدماكِ باضطراب، حِجَابك يضغط رئتيك، تعتصر جدرانك ميرا، قلبك ينفلت عن ضرباته، تقتحمُ أنفكِ روائح عديدة، تتسع فتحتاه ثم تنكمشان بفزع، هلعك الوحيد أن يكون إسماعيل والولدان هنا، تقفين بين الرؤوس المتسلّخة تتبينين ملامحها، الرماد والرمل نسفا جميع الملامح، الأغصان التي جُمِعَتْ للطبخ

تحولت إلى ذرٍّ في الهواء، إسماعيل ينكفئ على ابنيه، عيناه تحدقان في فراغٍ هائلٍ أوله كاودا وآخره الخرطوم، تنزلقان إلى الداخل وتستقران في مكانٍ ما في تلك الجمجمة الصغيرة، سعيد يغمضُ عينيه بخشوع، يونس بين ذراعَي إسماعيل، تبدو جثثهم كأنها نُحتت من الصخر والدم وكلهم يميلون بأجسادهم نحو الأرض، تطبقين جفنيكِ بقوّة على أمل أن تفيقي من كوابيسَ سرياليّة، تفتحينهما على اتساعهما، تنقضُّ الحقيقة عليهما وتفترسُ إنسانيهما، تغمضينهما...

تفتحينهما، ها أنتِ داخل سيارة الجيب مع أخيك، تشقّان الرمل والصحاري وشجيرات الأثل والحنظل، لا تأبهين لجوعك أو لعطشك، تتكوّر داخلك بهدوءٍ سابحةً في ذلكَ السائل الدافئ، لا تتبادلين الحديث مع أخيك ولا يسألُك عن التفاصيل ولا يخبرك بحقيقة وجهتكم بعيدًا عن فردوس الخرطوم الكاذب، تطلبين منه أن يتوقف فيفعل، تنزلين من المقعد الأمامي بصعوبة، يسألك: ماذا تريدين؟ تفتحين باب المقاعد الخلفية، تستلقين بطولك، تقولين بصوتٍ مشروخ: النوم... أريد نومًا طويلًا. تنامين، تضجّ داخل رأسكِ عباراتٌ كثيرة يتردد صداها في جرابك اللحمي الذي يطوّق ميرا: الخرطوم كبيرةٌ جدًا يا إسماعيل وأنا أخافها. كل شيء سيكون تمامًا يا عزيزة، ولا تنسَي، أنا لم أمُت بعد. سعيد مهندس.. ميرا دكتورة.. يونس تاجر.. لالا.. لن نسكن الخرطوم.. المعسكر يا إسماعيل.. أم درمان يا عزيزة.. لا أريد سوى النوم.. سنسكن مع أخيك.. ولا حتى في الأحلام.. سنذهب للحدائق.. يونس تاجر... مهندس... يونـ... بُم بُبُم دُم.

ويعيد شريط ذاكرتك ذات العبارات على طول الطريق، مدى الحياة.

حرب شارع البهلوان

طويلةٌ ونحيلة كنخلة، نظيفة الثياب مرتبة المظهر، للحد الذي يجعلك تدرك منذ النظرة الأولى أنها من أسرةٍ ميسورة، بشرتها السوداء والناعمة تلمعُ وتبرقُ كصوف الكشمير إذا دهَنَتْها بزيتٍ أو دهان، سميكة الشفتين، فطساء الأنف، وأصابع يديها تحتكّان بركبتيها عندما تمشي أو تقف على استقامتها، صموتةٌ وغامضة، ينادونها ميري، وكل مناها في الحياة أن تظفر بصديقة، وعندما وجدتها أخيرًا اعترض عليها أبوها محذّرًا إياها من مخالطة أي أحدٍ من سكان الحي المقابل، باختصار أي ذي بشرة فاتحة، قال لها: قتلوا جدك جون قرنق.

وهذه الأخرى قصيرةٌ وممتلئة كأناناسة، ذات سحنةٍ فاتحة أو قل بيضاء، رقيقة الشفتين، مدببة الأنف، بشوشةٌ ضحوكة، تسمّى عائشة، كل ما تريده الآن أن تبتعد عنها ميري وتنساها، لا لشيءٍ سوى لأن أباها قال لها بصورة توعد حاسمة ألا تلعب معها مرةً أخرى، فهي جنوبيّة وكافرة حسب وصفه وتعبيره.

كانتا تمرحان دائمًا في المدرسة معًا، وهي المكان الوحيد الذي يستطيع فيه أولاد المنطقة من كلا الحيين الاختلاط دون مراقبةٍ من أهاليهم، تشابكان الأيادي وتدخلان وتخرجان معًا وتفترقان عند ورشة النحات التي تنتصب تحت النيمة قبيل البيوت، العلاقة بينهما في السابق كانت قويّة الأواصر تستمتعان باستكشاف بعضهما في كل مرةٍ تلتقيان فيها؛ فمثلًا: عائشة اكتشفت ذات يوم أن لميري صوتًا طفوليًا غرّيدًا عندما تنشد الأغاني التراثية لقبائل الجنوب، رويدًا رويدًا، تبيّن لميري أن عائشة ما كانت ثرثارة -علمًا بأن ثرثرتها مشحونةٌ بكهرباء المغامرة ومُحلّاةٌ بروح الفكاهة- بقدر ما هي مستمعةٌ جيّدة

وسريعة الحفظ، حتى أنها أصبحت في كثيرٍ من الأحيان تحادثها بكلماتٍ من لغتها الأم، ولم تزالا على ذلك الحال حتى صفتْ كأس الوُد بينهما.

ومثلما هو طبيعي بين صديقتين في تلك السن كانتا كثيرًا ما تتشاجران، وأغلب شجاراتهما عند شجرة النيم التي تظلل ورشة ذلك النحّات قبيل الحي، حيث تبحثان تحتها عن بقايا مجسمات الخشب والطين المكعّبة والمستطيلة والدائرية والمنحنية التي يكون النحات في غنًى عنها، لتصنّع كلٌّ منهما ما يتيح لها خيالها رؤيته بيتًا أو عربةً أو حيوانًا، مستعينتين بأدوات النحّات الصموت طويل البال الذي يساعدهما ويظل مبتسمًا طيلة سحابةِ نهاره، يرتدي ملابسَ للعمل ذات ألوانٍ غريبة على أهل ذلك الحي، متناقضة فيما بينها، قميصٌ قصير الأكمام فاقع الصفرة، وبنطالٌ قاني الحُمرة، وقبعةٌ ليمونيّة، وعندما كان الأبوان يحضران إلى الورشة ليعرفا منه من المخطئة فيهما كان يمد سبابته بابتسامةٍ بلهاء نحوهما دون أن ينطق بحرف، ولا عهدَ لأحدٍ في الحي بأنه سمع صوته مذ ظهر في تلك المنطقة، حتى خالوه أبكمًا أو مصابًا بالخبل.

البنتان لم تريا بعضهما منذ أسبوعٍ على أقلِّ تقدير رغم تقابل بيتيهما، والآن بالذات بدأتا تلحظان الفوارق الشكلية بينهما جليًا، كانتا تسمعان تحذيرات الأهالي المتكررة من مخالطة أفراد الحي الآخر ودون أية مبررات، وكان أهل المنطقة من كلا الحيين قد وقّعا اتفاقيةً قديمةً قدم المنطقة نفسها، تنص على أنّ:

"تبادل الحديث بين البِيض و السود ممنوع، تبادل التحايا ممنوع، الزيارات ممنوعة، و لا يكون التعامل بين أهل الحيين إلا في حدود تبادل المنافع، أي مأكولٍ أو مشروبٍ أبيض اللون لا يدخل حي الجنوبيين، بما في ذلك الحليب، الزبادي، القشدة، البيض، وحتى البهائم البيضاء، وأي مأكولٍ أو مشروبٍ أسود

اللون لا يدخل حي الأعراب بما في ذلك الباذنجان، العسل، الكمّون، الكولا والبيبسي، التمور بصورة عامة والعجوة بصورة خاصّة وأي حيوان أسود اللون".

المراسيل إلى الدكان مؤخرًا أصبحت تشكِّل هاجسًا لكلا البنتين؛ لأنها تزيد احتمالية تصادمهما، إما عند الأبواب أو في الشارع أو الدكان، فيجب عليهما حينها ألا تتحادثا أو تتسالما، متوهمتين دائمًا أعينًا خفيّة تراقبهما من خلف الستائر والشبابيك، ترصد كل حركةٍ تصدر منهما وكل التفاتة؛ لذلك كان التعامي هو الحل الأمثل لكلٍّ منهما.

كلاهما الآن تجلس قبالة الأخرى عند بابي بيتيهما في حذرٍ عنكبوتي، تسأل ذاتها عن السبب الذي حرّم اجتماعهما مرةً أخرى، ذلك السبب الذي استعصى على كليهما إدراك كنهه، تلتقي الأعين وتتحوّل سريعًا وتتظاهر بعدم الاعتبار والتأثّر، وكل منهما تود لو تقفز وتعانق الأخرى، والنحات الصموت يراقب حالهما من ورشته آخر الشارع بشفتين منفرجتين وقلبٍ منقبض، بالتأكيد بدأ الأمر يحتد عندما علم أبو ميري باصطحاب ابنته إلى المسجد من قِبَل عائشة وصلاتها معهم الجمعة الماضية، أو أن والد عائشة سمع ابنته تتحدث بكلماتٍ غريبة مثل الرب ويسوع غير مرةٍ في البيت، فهنا فقط سيستشعر الأبوان خطورة العلاقة بين البنتين، وأنه لا يجب عليهما التغاضي عما حدث أمامهما وعما تحمله إليهما الألسن الخائنة أكثر من ذلك، حتى لو كان على حساب ابنته هكذا فكّر النحات الطيب وهو الذي كان يقضي معهما أوقاتًا سعيدةً سرية تحت النيمة.

كثيرًا ما تسمعان من غرفتيهما تبادل الشتائم بين أبويهما على الأبواب أو من النوافذ.

تصلهما الأصوات المتسابّة كأنها بقيّةُ لغطٍ من كابوسٍ مزعج، وتستمران في حزنهما الصامت تلاعب كل منهما على خفية الدمية الخشبية الصغيرة التي صنعتها للأخرى بمساعدةٍ من النحّات، عائشة في شكل دميةٍ دائرية الوسط برجلين مربعتين ووجهٍ مدوّر، وميري في شكل دميةٍ مستطيلة الجذع والأطراف ووجهٍ أقرب ما يكون للمثلث. وعندما فكّرت كلٌّ منهما أن تطلي مجسم الأخرى بلون صاحبته أشار إليهما النحات بيده المعروقة وفي نهي لطيف ألا تفعلا.

واستمر حبس البنتين أيامًا، ولم يصدّق كلٌّ من الأبوين أن ابنته ما عادت تذكر سيرة الأخرى في البيت حتى اختفتا من الحي ذات صباح ولم يُعثر لهما على أثر، مثلما تذوِّب الشمس قطع الثلج أو كما تبدد اليقظة حلمًا جميلًا.

***

_آه يا عائشة، السّواد قاتل، لماذا كل الأشياء في غرفتي بهذا اللون؟ ستائرُ بلون السّحَر، طاولاتٌ أبنوسيّة يُخيّل إليّ أنها تبتلع كل ما أضعه عليها، الأبواب والشبابيك بدرجاتٍ مختلفة من الفحمي، شراشفُ غرابيّة يضيق صدري كلما نظرتُ إليها كأن بينها وبين الشيطان سبب، وكل بيوتنا في هذا الحي بنفس هذه الديكورات الخانقة، أنا هنا لا أعرف الصباح من المساء، وأحيانًا لا أعرف هل أنا يقظةٌ أم نائمة، السوادُ مضلل، لو اضطجعتُ كأنما أتوسّدُ قطعةً من الليل، لو قفزتُ كأنما تنزلق الأرضُ تحتي وتهوي في بئرٍ سحيق، أمشي ولا يتغير مكاني كأنما تتحرك الأرضيّة عكسي، وأحيانًا أظنّ الظلام يمتدّ من جسدي ثم يسقط على الجدران والأشياء، وأحيانًا أخالني وليدة السواد في هذه الغرفة، لو أشعلتِ

مصباحًا نحوي اختفيت، ما الذي يمكن أن ينتشلني من هذا الضياع يا عزيزتي؟.

***

_ عزيزتي ميري لستُ بأفضل منكِ حالًا، ها أنا هنا أسعى بكلِّ ما أوتيت أن أغلق النوافذ والمناور وكل ما يجعل الضوء يصل غرفتي، فالبياضُ ساحق يا ميري، متفجّر، ما إن يقع عليه نور المصباح أو أشعة الشمس حتى يثور ويمور، فتتلألأ الأغطية والملاءات المرمريّة، وتشعشع الطاولة كأنما يجلسُ إليها نبيٌّ أو ملَك كريم، وجدراننا الكريميّة تتقد كأنما ستنشقّ عن الحُجُب، والسقف البورسليني، آهٍ من السقف يا ميري، يتوهّج كأنما ستطلع منه الشمس، لا حدود للأشياء ولا معالم واضحة، وهذا حال كل بيوتنا في هذا الحي، الأبيض هنا يصيبني بالغثيان، إذا فتحتُ عينَيّ لم أفتحهما على اتساعهما، وإذا ارتديتُ ملابسي، البيضاء كلها، كأنني ارتديتُ قطعةً من نسيج الشمس.

***

"ومن يرانا هكذا، عصفورتين أسيرتَي السّواد والبياض، يخالنا اجترحنا ذنبًا في ساعةٍ من الليل، و الله أعلمُ بما في ليلنا من شجون".

ولما طلعت الشمس كان والد ميري قد قلب البيت رأسًا على عقب.

إنه لم يرسل ميري إلى الدكان اليوم، ولم يرها صاحب الدكان منذ يومين كما قال، واليوم عطلة فلا يمكن أن تكون في المدرسة، ليس لها أثرٌ في الحي أجمع والذي خاط شوارعه بحثًا عنها، وبرقت في ذهنه فكرةٌ خطيرة فرّت

بسببها عروقه، وهي أن تكون ميري في بيت عائشة، وكان هذا بالضبط ما يحصل مع والد عائشة في الجهة الأخرى، واندفع كلٌّ منهما نحو باب بيته قاصدًا الآخر لاقتلاع ابنته، التقيا عند البابين، تبادلا نظرات الشك والعداء، ثم بدأت أصابع الاتهام تمتدُّ بينهما دون توقف، وبدأ أهل البيوت الذين يسكنون يمين الشارع وهم أهل ميري بالخروج بسياطهم وحرابهم، تلتمعُ جلودهم الجمانيّة تحت أشعة الشمس، ويطفرُ من أعينهم الشرر، بالمقابل، خرج ساكنو البيوت في الجهة الأخرى يلوّحون بسكاكينهم وسيوفهم، لا ترى فيهم جبهةً منبسطة، كأنما ضاقت عليهم جلودهم، يهددون آل ميري بالكشفِ عن مكان عائشة وإلا سيكون لقواطعهم رأيٌ آخر، وضاق الشارع بالمجموعتين، وضجّ بشجارات النساء من كلا الجانبين، من أمام البيوت وعلى النوافذ ومن فوق الحيطان.

ثم فجأةً -ومثلما يهبط الوحي أو تتجلّى المعجزات- بهرَ أهل الحي في ذلك الضحى شعاعانِ عند ورشة النحّات، انطلقا من دكانه وغابا في سماء الله الواسعة، أحدهما ناصعٌ كالحليب والآخر قاتمٌ كالعسل، ثم دويّ انفجار، وتطاير نشارة خشبٍ وتشتتها في الهواء، حتى خُيِّل إليهم أنها ستغطي السماء كلها، ثم دخاخين ملونةٍ بألوان لم يعرف لها أهل ذلك الحي مثيلًا من قبل، والذين كانت حياتهم لا تتجاوزُ ميل اللونين الأبيض والأسود، فكسيت السماءُ بطبقةٍ سميكةٍ من الألوان، حينها-وبلا وعيٍ موجّه- اندفعت أقدامهم وخدر الخوف يسري في عروقها، استصعبوا تحريكها بسرعةٍ كأنما يخوضون في الماء والأرضُ تشدهم، وهم يحاولون بقوّةٍ الهرولة صوب ورشة النحّات.

عندما وصلوه وقفوا يرمقونه بنظراتِ تساؤلٍ متخوّفة، ونطط هو عينيه في نظراتٍ متفحصة، وتساءلوا فيما بينهم عما إذا كان هذا النحات الغريب المريب يعرف مكان البنتين حقًا.

_هل تعلم أين عائشة؟ (سأل والدها).

أومأ النحّات في حركةٍ مسرحيّةٍ صامتة وأشار بسبابته وبابتسامةٍ بلهاء نحو تمثالٍ خشبي ينتصب تحت شجرةِ النيم.

_هل تعلم أين ميري؟ (سأل والدها).

فأشار مرةً أخرى نحو التمثال.

وقف الفريقان أمام التمثال متقابلين، ضيّق الجميع أعينهم وهم يحدقون فيه، ثم تبادلوا نظرات الاستغراب ونعتوا النحّات بالخبل والجنون، ثم افترقا كلٌّ يبحث في طريقٍ آخر، لكنهما لو تريثا قليلًا للاحظا ملابس البنتين مرميّةً تحت الشجرة، وأن التمثال كان ربعةً في الطول، بندقيّ اللون، ما كان نحيلًا كميري ولا بدينًا كعائشة، لم يكن دقيق الشفتين ولا سميكهما، أنفه كان أحدبًا وجميلًا، في عينيه هدوء ميري وعلى شفتيه بشاشة عائشة.

طاسة وطمنطاسة... الفي البحر غطّاسة

إلى روح د. عبد الله الطيب

افترشت الجدّة لحافها وتجمّع حولها الصبية وكانت الكهرباء مقطوعةً منذ ساعات لكنّ الليل يجود بنسماتٍ عليلةٍ حالمة، وجيء بسراج الغاز، وقال الصبية للجَدّة أن تحكي لهم كما كانت تحكي لآبائهم منذ دهور، وتنحنحت الجدّة وسكتت لبرهة وبدأت تقول لازمتها عند كل قصة: حجّيتكم ما بجيتكم...

قالوا إن تاجوج حسناء الحمران عندما تعلّمت المشي خرجت ذات ليلةٍ إلى النهر، فاستيقظت الخادمة على حركتها وتبعتها إلى أن عرفت أنها مسحورة، فتاجوج كانت تمشي وهي نائمة ولا تصحو على مناداة لها، وعندما وصلت تاجوج النهر خرجت منه أَصَلةٌ كبيرة زرقاء عيناها في حجم الفنجال والتفّت حول تاجوج وكلما حاولت الخادمة إفلات تاجوج من الأصلة كانت تتلقّى سمّاً زعافًا يحرق الزرع والأرض، فهرعت الخادمة مفزوعة إلى بيت الزعيم وجاءت بأم تاجوج وكلما حاولت أمها تخليصها من الأصلة كانت تتلقّى سمًّا زعافًا يحرق الزرع والأرض، ورجعت المرأتان ممكونتين إلى بيت الزعيم وجاءتا بأخي تاجوج وقد كان فارسًا شجاعًا يهابه الأعداء ولكن حصل معه نفس الشيء الذي حصل مع الخادمة وأم تاجوج، فرجعوا جميعًا وجاؤوا بأبي تاجوج وقد كان زعيم القبيلة فقال لهم: "صِفوها لي" فوصفوها فقال لهم: "دا جني ما يقدر عليه إلا الله". فقعدت أم تاجوج وهي تبكي مع الخادمة بكاءً مُرًا وقال أبو

تاجوج للجنّي: "أذيناك في شنو يا جنّي.. وليه تاجوج يا جنّي؟ ما شايفها رقيقة عضم وبلا لحم؟!". ففغرت الأصلة فمها كبيرًا وتقاطر منه السم الزعاف وقالت بعد أن جفّت أنيابها: "الله ما خلق في البشر والجن بنت أحلى من تاجوج، أنا دايركم تزوجوها لي". فقال الزعيم: "كيف نزوّجها وعمرها خمسة؟". فقالت الأصلة: "أنتظر لحين يصير سبعة". فقال أبو تاجوج: "وقتها عايزها تدخل الخلوة وتحفظ القرآن". فقالت الأصلة: "أنتظرها لحين تحيض". فقال أبو تاجوج: "وقتها تساعد أمها في البيت وتحلب اللبن وتجيب الموية من البحر". حينها عرف الجنّي نِيّة الزعيم في عدم تزويج تاجوج له فانتفخت عيناه، فقال أبو تاجوج: "نديك قنطار دهب، دَهَبْ أبونا وَهَبْ، اللي عمرو ما انوَهَبْ، وتخلي تاجوج؟". فرفضت الأصلة، فقال الزعيم: "طيب قنطار لولو، لولو اليمن يا جني، اللي ينادولوا ويغنولوا". فرفضت الأصلة فقال الزعيم: "بقنطار عاج، عاج عمّنا أوهاج، تاجر العاج والديباج يا جني؟". فرفضت الأصلة وازداد التفافها حول تاجوج.

وكان يبيتُ ليلتها معهم "المحلّق" ابن عمّة تاجوج، وقد كان فارسًا شجاعًا وذكيًا، قال للأصلة: "كلام رجال يا جنّي، إذا حليت الغلوتية دي نعطيك البنت، وإذا حلينا غلوتيتك تعطينا إياها، ولازم واحد فينا يتغلب"، فرضيت الأصلة بهذا الكلام، فقال محلّق: "فيها فَد سنينة وفيها فَد عوينة وبسم الله علينا"، فقالت الأصلة: "سهلة، الإبرة.. حلّوا دي: ملِكين في كَكَر إن دا غاب دا حضَر". فتشاور المحلق مع الزعيم وأهله وقال: "الشمس والقمرة"، فأفلتت الأصلة تاجوج، وقال محلق: "فتحتها فتح الكتاب لقيت فيها الأكل والشراب، دي شنو يا جنّي؟". فقالت الأصلة بعد تفكير: "البطيخة. فأفلت محلقُ تاجوج"، وسألت الأصلة: "كان شالوه رَطَنْ وإن خلوه بَطَن". فسكت محلق يفكّر واجتمع مع أهله وقال أبو تاجوج بعد أن اتفقوا: الجنزير، فأفلتت الأصلة تاجوج وقال محلق: "طاسة

وطمنطاسة في البحر غطاسة من برة لولو ومن جوة نحاسة، تبقى شنو يا جنّي؟". فسكتت الأصلة وفكرت كثيرًا وكثيرًا ولم يكن معها أحد يساعدها، فقال المحلق: "دحين وقت تنفيذ الوعد جاء، وضروري تخلي لينا تاجوج". فغضب الجنّي غضبًا ما غضبه جني من قبل وغرس دبُوسًا في جعبات تاجوج فتحوّلت إلى قرد يهرّج، وقالت الأصلة: "دحين بخليها ليكم، وما بتلقوا علاجها إلا عند بدر البدور، ملكة السبعة بحور، وهي أكيد حتسألكم قبل ما تخدمكم".

واحترقت الأصلة ولم تقل لهم السؤال الذي ستسأله لهم بدر البدور، ومشى المحلق وأهل تاجوج طويلًا بحثًا عن بدر البدور ملكة السبعة بحور وتجاوزوا جبل التاكا وارتاحوا عند بئر توتيل وهناك التقوا بحارس البئر وكان من أهل البجا وقال لهم الرجل إن بدر البدور وراء الجبل وأنها ستسألهم قبل أن تتحدّث معهم في شأنهم ولم يقل لهم السؤال، ومشوا طويلًا حتى رأوا قصرًا من المرجان على شاطئ البحر الأحمر والتقوا بحارس القصر وحكوا له شأنهم فقال لهم: "هي أكيد حتسألكم قبل ما تخدمكم". ولم يخبرهم بالسؤال، فدخلوا عليها ووجدوا في سراياها سبع نوافذ كل نافذةٍ تطل على بحر، وقد كانت بدر البدور امرأةً خارقة الجمال تلفّ حول نفسها ثوبًا برتقاليًا يشبه ثياب أهل البجا وقبل أن يحكوا لها شأنهم سألتهم: "دحين سؤالي هو مين أحلى بنت حواء في الدنيا؟". فقالت خادمةُ أهل تاجوج: "تاجوج بنت الزعيم اللي سحرها الجنّي". فغضبت بدر البدور وحوّلت الخادمة إلى كلبة تنبح، وقالت لهم السؤال مرة أخرى فقال أخو تاجوج: "بعد تاجوج أجمل واحدة هي نورا أم شليخ". فغضبت بدر البدور وحولته إلى غراب ينعق، ولما سألتهم للمرّة الأخيرة فطن محلق لإجابتها التي تبحث عنها فقال: "بدر البدور، المن بنات الحور، ملكة السبعة بحور". وقالت بدر البدور للمحلق: "الآن قولوا لي لماذا جئتم؟". وحكوا لها حكاية تاجوج

والأصلة عند نهر سيتيت وبكت أم تاجوج بكاءً شديدًا حتى رقّ قلب بدر البدور لحالها وقالت لهم: "كي ترجع لكم تاجوج يجب أن تستحمّ في البحار السبع، لكن يجب أن تحذروا ففي أول بحرٍ مرفعين كبير يسألكم لغزًا وتجيبونه وإذا أجبتم الإجابة التي يريد سمح لكم بالعبور لكنني سأعيد الكلب والغراب إلى هيأتهم الحقيقية"، وذهب الجميع إلى المرفعين وكان حزينًا حزناً ما حزنه مرفعينٌ من قبل وحكوا له حالهم فقال: "أسألكم سؤالًا واحدًا إذا أصبتم مررتم وإن اخطأتم أكلتكم". فوافقوا جميعًا وسألهم المرفعين: "عابدة الفي الجروف لابدة.. دي شنو؟". وفكّرت الخادمة وما عرفت، وفكّر أخو تاجوج وما عرف، وفكرت أم تاجوج وما عرفت، وفكّر الزعيم وما عرف، وفكّر المحلق وقال كمن تذكر شيئًا: "المركب".

وغضب المرفعين غضبًا شديدًا وطفر الجمر من عينيه وطلع الدخان من منخريه وانقلب إلى الأصلة التي التفت حول تاجوج عند النهر وعرف المحلق أن الأصلة كانت تخطط لهذا منذ البداية وبدأت تنفث السم كيفما اتفق وجرت خلف المحلق كي تبتلعه لكنّ بدر البدور تنبّهت لغدر الأصلة بهم ورمت للمحلّق حربةً مسننة وأخبرته أن يشكها بين عيني الأصلة، واستطاع المحلق بعد لأي أن يفعل ذلك، وجاب بتاجوج البحار السبعة وقبل أن تعود لهيأتها البشرية دسها المحلق في جوالِ خيش حتى لا ترى بدر البدور تاجوج وتعلم أن هناك من هي أجمل منها بين بنات حواء وتقوم بأذيتها، وتزوّج محلق بتاجوج لما رجعوا وقال فيها أشعارًا كثيرة جابت ديار الحمران وما جاورها وتلك قصة أخرى، وقالت الجدّة للصبية: "هل أحكيها لكم؟". لكنّ الكهرباء كانت قد عادت في تلك اللحظة وتفرّق الصبية لشحن هواتفهم.

جئتُ لأقول الحقيقة

-مشهدٌ أوّل-

لم يكُن بينه وبين دنيا الأحلام سوى خطوةٍ واحدة عندما هجم عليه طلحة عرِقًا لاهثًا، انتفض منشولًا من لذة الاستكانة، كان طلحة مخطوف الوجه، لا يعرف كيف يبدأ حديثه ولم يجد نفسه إلا وهو يقول:

_ الجنازة يا النوراني.. جنازة زريبة حاج صدّيق.

_ استغفر الله وأتوب إليه، مالي ومال الجنازة يا ابن الحرام، ليذهب حاج صديق وجنازته في ستين ألف داهية.

_سندخل السجن.. السجن يا النوراني! الشرطة جاءت لتفتح القبر.

وتثبّت وعي النوراني في الواقع، جرت ذكرياتٌ كثيرة في رأسه وسكن كالصنم.

_الحلّة الآن كلها في المقابر.

وانطلق الاثنان صوب المقبرة.

-مشهدٌ ثانٍ-

حاج عبد الله لم يكن قد أنزل اللقمة الأولى في ريقه من وجبة الغداء عندما جاءته زوجته أم سلمة تقول:

_هل تتذكر جنازة البحر يا عبد الله؟

_نعم مالها؟ قامت من قبرها؟

_الشرطة تقول إنها لم تمت غرقًا، بل مقتولة.. عمها يعمل في الشرطة وجاء من الخرطوم لرؤيتها وسيعرضها على طبيبٍ شرعي للتأكد من سبب الوفاة.

_بعد عام؟ الآن تكون الجثة في بطن الدود.

قال ذلك ودفس لقمة كبيرة في فمه ثم أردف: أنا تعبان جدًا، سآكل ولا توقظيني إلا للصلاة.

_صحة وعافية.

واصل أكله بشراهة، ثم بعد مدةٍ لا تتجاوز ورود خاطرٍ أو بعث ذكرى، قفزت عيناهُ من محجريهما، تعسّر عليه بلع اللقمة، كحّ حتى صرصر السرير، احتقن وجهه، ولم تصل أم سلمة الديوان لتفقّده إلا وهو يغلق الباب خلفه مهرولًا.

-مشهد ثالث-

حاج صديق يهمسُ مع شيخ الحلّة أثناء سيرهما نحو المقابر، يسيران بخطًى وجِلَة، بكامل نظافتهما، جلابيتاهما البيضاوان تجهران الناظر، يقلوظان عمامتين تغطيان جبهتيهما في منظر مهيب. قال حاج صديق وقد كان يتكلم بيده أكثر من لسانه:

_لن يصلوا إلينا بأي وسيلة، لا تخف يا مولانا.

_لن يجدوها أصلًا يا صدّيق، هل تظنهم يجدون شيئًا بعد عام؟ اسمع، للضمان ابعث رجالك، إذا مرق الموضوع على خير أعطيتك هذا الخاتم.

ورفع بنصره كاشفًا عن خاتمٍ من الفضّة به فيروزة كبيرة من العقيق السليماني، وداری حاج صدّيق فرحه مستغفرًا.

_ما الذي جعل عمها يشك في حكايتها؟

_سمِع من أحدهم أنهم عندما وجدوها في النيل كانت طافية.

_وماذا يعني هذا؟

_لا تطفو إلا الجثث.

-مشهد رابع-

الرائد حسن يقوم كالطود وسط رجال الشرطة، يراقب المساجين وهم ينبشون القبر، على أطراف المقبرة يتحلّق رجالات الحي ونساؤه وأطفاله، فليس كل يومٍ يُفتَح قبر، عند البوابة يقف شيخ الحلة وحاج صديق، خلفهما حاج عبد الله والنوراني وطلحة، الناس واجمون مشدوهون، لا تسمع إلا همسًا أو مناحة امرأة تعزّ عليها المرحومة. عندما بدأ المساجين يزيلون الطوب عن اللحد تبيّن لهم الكفن شيئًا فشيئًا، أخرجوا الجثمان ووضعوه على النقّالة، ظنّوها دفينة الأمس، فجسدها طريّ والكفن ناصع البياض ولم تأكل منه الأرض شيئًا، حوقلوا وهللوا، احتقنت عينا الحاج صديق بخوفٍ مشوبٍ بغضب، النوراني ساحت ركبتاه، وحاج عبد الله قال في نفسه لابد أن أقول شيئًا.

-مشهد خامس-

الشرطة عبر مكبرات الصوت تذيع وتؤكد أن الجنازة ماتت مقتولة، الخبر يخرج من السوق والجامع والجزارة، التقرير الجنائي كشف أنها ماتت بضربةٍ فأسٍ على جمجمتها وظهرها، ثم رميت في النيل، تناقل الناس القصة في

مجالسهم، وطار الخبر إلى القرى المجاورة، كثيرون قالوا إن هذه الجنازة صالحة بأمارة أن جسمها لم يتحلل أو يتعفّن، زغردت لذلك بعض النائحات، استبشر أهلها بقول الطبيب العدلي: عندما أزحنا الكفن وجدناها كأنها نائمة. عبر مكبرات الصوت أيضًا كانت الشرطة تنشد مساعدة الأهالي في البحث عن القاتل، كل من لديه أقوال أو شكوك فليأتِ للمركز لمقابلة الرائد حسن والإدلاء بإفادته.

-مشهدٌ أخير-

حاج عبد الله يدخل عبر بوّابة المركز وهو يعيد ترتيب أحداث تلك الليلة في رأسه، يدقق في التفاصيل خشية أن يسهو عن شيء يُحسَب عليه، دخل واثقًا نافخًا صدره، زكمت أنفه رائحة المكتب الخشبي، وجد الرائد يعقد كفيه ويسند ذقنه عليهما في رحلةٍ من الشرود تلوح من عينيه نظرة توعُّد.

_السلام عليكم جنابو.. جئت لأقول الحقيقة.

أجلسه الرائد وطلب له كوبًا من القهوة، ثم طلب من أن يسترسل في سرد ما يدسُّه في بطنه.

-استرجاع أول-

لم يكن الفجر قد طلع تلك الليلة عندما اخترقت أذنيه طرقاتٌ قوية على الباب، فتح جفنيه بصعوبة وألم، صُداع سُكْر البارحة يطوّق رأسه كالعمامة، لاح أمامه شبحٌ شائه، أضاء مصباح الغرفة وقال: قم يا رجل.. الباب سيقع.. قم يا حاج عبد الله. راحت الغلالة الضبابية عن ناظريه، تعرّف على ذلك الشبح، كانت زوجته أم سلمة، أسنانها تصطكُّ من البرد، اعتدل حاج عبد الله في جلسته

واستغفر، تناهض مستندَاً على كتف أم سلمة، وما إن لامس الماء البارد بشرته الجعداء حتى طار خمار السكر عن رأسه.

_يا حي يا قيوم.. من يأتي في هذه الساعة لا يأتي إلا لشديد.

قال ثم اندفع خارجًا، ضربته في فناء الدار موجةُ برد حتى تصلب وجهه كالقناع، فتح درفة الباب نصف انفتاحة، لمح ظلين يقفان بُعيد الباب.

_خير يا جماعة، من؟

_رأسك رجع خفيفًا يا حاج عبد الله والعَرَقِي ينوّمك كالميت، لنا ساعة ونحن نطرق الباب.

_النوراني! خير إن شاء الله.

_نريدك في مشوار.

_مشوار؟ الآن؟

_من زربية حاج صديق إلى البحر، وعشر آلاف جنيه تستلمها في نفس اللحظة.

العرض مريب ومغرٍ، فكّر حاج عبد الله، الزريبة لا تبعد كثيرًا عن النيل، لكن لماذا يريدون الكارو في هذا الوقت؟ قطع عليه تساؤلاته الصوت المبحوح لطلحة:

_عشر آلاف جنيه يا حاج عبد الله، لماذا التفكير؟ مبلغ كهذا لا تكسبه لو عملت أسبوعًا بنهاره وليله.

وغلب الجانب المغري من العرض الجانب المريب.

خرج حاج عبدالله من باب زريبته ملتحفًا شالًا من الصوف يجرّ كاروه، وعندما دخل زريبة حاج صديق مع النوراني وطلحة كان النبّاه الأول يشق سدفة الليل. أزاح النوراني الأحواض التي تشرب منها البهائم، وقعت عينا حاج عبد الله على لفّةٍ من الحصير، قال له طلحة: هذه اللفة سنرميها في النهر.

_وأنا أقسم يا جنابو حسن أنني لم أكن أعرف أن في تلك الحصيرة جنازة. وما حكيته لك هو ما حصل دون زيادة أو نقصان.

_وأين طلحة والنوراني؟

وقطع حديثهما شرطي المكتب يقول إن رجلين في الخارج قدِما ليدليا بأقوالهما، وفور دخولهما أشار إليهما حاج عبدالله بإصبعٍ كالسهم: هذان هما.. هذان هما يا جنابو، طلحة والنوراني.

وفعل الرائد معهما مثلما فعل مع حاج عبد الله، أجلسهما وأحضر لهما كوبين من القهوة، أشعل سيجارة، سألهما:

_هل تدخنان؟

_ لا.

_قولا لمَ جئتما.

_لنقول الحقيقة.

_تفضلا إذن على راحتكما ومهلكما.

-استرجاعٌ ثانٍ-

هذه هي زريبة الحاج صدّيق، وهؤلاء هم الشباب، وهذا هو العريس الصافي ابن الحاج صدّيق يحمل سوطه ويُبشّر، تدور بينهم أقداح العرقي فتحمرّ وجوههم، جلَدَهم الصافي بسوط العنج حتى تفصّدت ظهورهم دمًا، النوراني استفزّ العريس بأن رماه بحفنةٍ من التراب كنايةً عن أن السوط بارد، فما كان من الصافي إلا أن ملأ ذراعه ونزل بكامل السّوط عليه حتى أسقطه أرضًا، دارت به الدنيا دورتين، ارتجّ نظره قبل أن تستقرّ عيناه تحت حيضان الماء، حيث لمح امرأةً ممددة ومغطاة بثوبها الأصفر ويداها مقيدتان إلى جسمها، نهض النوراني متثاقلًا، أراد التأكد من أن ما يراه ليس تصاوير السُكر أو خطرفات النعاس، وما إن همّ بإزاحة الحوض حتى لحقه الصافي بسوطٍ آخر على ظهره فهوى على الأرض. جميع الشباب يرقصون ويعْرِضون، وتدور بينهم أقداح العرقي، تلقّف الصافي النوراني وجذبه إلى الساحة وجعل يقفز معه. وبعد انصراف الشباب انفرد الصافي وحاج صديق بالنوراني في الزريبة وسألاه: ماذا رأيت تحت الحيضان يا النوراني؟

_امرأة.. جنازة مربوطة.

_هل حكيت الأمر لأحد؟

_لا.. أقصد.. لطلحة فقط.. من هذه المرأة يا حاج صديق؟ من قتلها؟

_اشش... علمي علمك، عندي لك عرض، تأخذ هذه الجنازة ومعك طلحة، ارمياها في النيل، ولكلٍّ منكما عشرين ألف... فكّر بنفسك.. فكّر بأمك وعلاجها وبأخواتك.

كانت القهوة قد بردت عندما انتهى النوراني من سرد ما حصل، ثم سألهما الرائد المزيد من الأسئلة حول مقابلتهما للحاج عبد الله للتأكد من صحة ما قاله، وقد كانت إجابات النوراني وطلحة متطابقَة تمامًا. أطفأ الرائد سيجارته، أمر الشرطة بالمجيء بحاج صديق فورًا، لكنه فوجئ بدخول مسنٍّ يرتدي جلابية ناصعة البياض، يلف عمامة تغطي نصف رأسه يدخل المكتب ويقول لاهثًا: جئتُ لأقول الحقيقة.

-استرجاعٌ أخير-

هذا هو مسيد شيخ الحلة، وهؤلاء هم أكابر القرية وأعيانها، يتناقشون في مسألةٍ مهمة تتعلق بالمشروع الجديد. العِشاء لم تكُن قد صُلِّيت، وحاج صديق كانت تأتيه من بيته أصوات الحفل والغناء، كبُر كثيرًا على هذه الحركات، وليس هذا الغناء غناء الزمان الماضي، انتهت مهمته في العرس مع عقد قِران ابنه والتفت الآن لما هو أهم، وبينما هو جالس بين الرجال مواجهًا الباب المطل على فناء الدار وفي خضمّ احتدام النقاش بين الرجال، يلمح حاج صديق امرأتين تدخلان وتمرقان على عجل، إحداهما القتيلة نفسها، كانت تدسّ شيئًا تحت ثوبها، تتبعهما مجموعة من النسوة يرتدين عباءاتٍ فضفاضة، وبعد هنيهات قطع نقاش الرجال في المسيد صراخ النسوة من الغرفة الموصدة، ثم فُتح الباب وخرجت منه القتيلة راكضة، وخلفها النسوة والشيخ و الرجال وحاج صديق، عرف حاج صديق من شيخ الحلة أن بهذه المرأة جن وقد جاءت للعلاج، اتجهوا جميعًا نحو مفازة عبد العاطي وافترقوا للبحث عنها، وصرف الشيخ نساء الحلة والرجال بعدما يئسوا من العثور عليها، وعند أوبة حاج صديق لبيته جاءه رسول الشيخ يطلبه على عجل في مفازة عبد العاطي، ولما وصل

وجد الشيخ يجلس بعيدًا يستغفر وأمامه المرأة ممدّدة يسيل دمها وقربها ساطور.

_كيف هذا يا مولانا؟

_بعد ذهابي للبيت جاءتني إحدى النساء تقول إنها وجدتها على هذه الحال.

_من قتلها يا مولانا؟

_أقسم لك برب العزّة أنني لا أعلم.

_من هي ومن أين جاءت؟

_لا أعلم.. لا أعلم. قال عبدُه التمباكجي إنها تسلّلتْ من قافلة الغَجَر.

ثم اقترح حاج صديق رميها في النهر.

_وأين شيخ الحلة؟ قال الرائد.

_ينتظرني خارج المكتب.

وبينما هما كذلك في المكتب، دخلت عليهما امرأة ترتدي عباءة فضفاضة سوداء ونقابًا بنيًا، وقالت: جئت لأقول الحقيقة.

لحظة عجيبة

كلاب الحيّ تتبادل النباح والديكة لم تتجاوب بعد، يهبُّ حاج ميرغني من فراشه كمستيقظٍ من كابوس، يتفحص ساعته بعينين واهنتين، الساعة الآن الثالثة فجرًا وهو وقت ممتاز للذهاب إلى المجمع، يتوضّأ على عجل ويصلي ركعتين، يكمل أذكاره وهو في الطريق، يتأكد جيّدًا من أنه لم ينسَ الكيس أو النقود، بالأمس انتظر ثلاث ساعات حتى ظفر بحصته، لكن اليوم لا، سيأخذ حصته باكرًا.

جميع أنوار المجمع مطفأة، لا حركة تصدر من الأفران تدلّ على أن هناك من يقوم بشيء، يرى مجموعةً من الناس تفترش الأرض أمام كل مخبز من المخابز الأربعة، يعقد حاجبيه، يضطرم صدرُه، يتساءل: متى جاؤوا؟ ومن هم؟ إنه بالكاد تعرّف منهم على رجلٍ وامرأتين. الرجال يتبادلون الحديث بطريقةٍ لا توحي بأنهم استيقظوا قبل قليل، أما النساء فيتبادلن المراقد على المسطبة الأخرى للفرن، متى جاؤوا؟ ألا ينامون؟ ينادي حاج ميرغني صوتٌ من وسط العتمة فيتعرف عليه بعد لأي، إنه شيخ مقبول جاره في السكن المقابل لشارع بيته، يسلّم عليه حاج ميرغني والحيرة لا تزال تطوّق رأسه.

_أأخذتك النومة اليوم أيضًا؟

_نمتُ متأخرًا يا مقبول.. حتى الثانية عشرة كنتُ أحاول مع الموتور لملء البراميل وفي النهاية سئمت، لكن، منذ متى وأنتم هنا؟ لم أكن أظن أنني سأجدُ شخصًا في هذا الوقت.

_إيه.. أنت مسكين يا ميرغني، أنا هنا منذ الثانية، وهذان الرجلان هناك على المسطبة يقولان إنهما باتا على هذه المسطبة.

_باتا هنا؟

_كما سمعت، يقولان إنهما من صالحة، وهناك امرأتان من أمبدّة.

_صالحة وأمبدة بأكملهما ليس بهما أفران؟

_علمي علمك يا ميرغني.. الله المستعان، السودان انتهى.

تسود فترة صمت يتوافد خلالها الرجال والنساء والأطفال على المجمع، يسألون عن نهاية صف الحجز أمام كل مخبز، الظلام يغطي الوجوه فلا تسمع إلا همهمات وتناوُشات، تطرق أذنَي حاج ميرغني بعض الأحاديث في السياسة، اتفاقية السلام، سعر الدولار في السوق السوداء يزداد بسرعةٍ فلكيّة، الحكومة الجديدة فشلت في تحرير مفاصل الدولة من تمكّن النظام البائد، وزير الصناعة والتجارة يعد الناس بأن أزمة الخبز ستُحَل خلال أسبوع، شيخ مقبول يحكي لمن معه أنه ما نام منذ الأمس سهرًا مع المياه، وآخرُ يحكي أنه منذ ساعاتٍ فقط خرج من صف البنزين بعد يومين من الانتظار. ضحكاتُ بعض الأطفال ومشاكساتهم تضفي أجواءً مرحة، وونسات الحريم في أوج اشتعالها، وكل هذا وحاج ميرغني لا يريد شيئًا سوى أن يظفر بالرغيف ويعود لإكمال نومته.

ثم يسود الصمت مرةً أخرى، وتنفرط جلسات الأنس، وينام المستيقظون ويصحو النائمون، ولذةُ النعس لا تزال تغوي الأجفان، وكلٌّ منهم يحسب وقت انتظاره حسب موقعه في الصف، وتدبُّ حركةٌ داخل الأفران وينبعثُ شعورٌ بالأمل والراحة في نفوس الجميع، وحاج ميرغني ابتسم لا إراديًا... لكن الطريق أمامه طويل.

***

صُليت الفجر.

تبدأ مصاريع نوافذ المخبز بالضجيج، ينتظم الناسُ في أماكنهم فتنجدل الصفوف، تُضاء المصابيح فتتكشّف الوجوه أمام عينَي حاج ميرغني، الحِلّة كلها في المجمّع، يزداد الضجيج، تسخن الأحاديث، تُفتَعَل المشاكل، تدور بينهم الأخبار، وحاج ميرغني منكفئٌ على نفسه يريد أن يصل إلى الشبّاك، والانتظار قاتل، وزاد الصبر قليل.

_أنا أشك أنّ ثلاثة أرباع من يقفون هنا يبيعون الرغيف في السوق السوداء. (قال مقبول).

_صدقت، معظم الوجوه هنا غريبة. (قال أحد الشباب وقد كان وجهه مليئًا بالبثور و الثآليل).

_ما الجديد يعني؟ السودان في اللوح المحفوظ محكوم عليه بالصفوف. منذ عهد البشير أو نميري. نحنُ منذ أن فتحنا أعيننا على هذه الدنيا نقف في صفوف (قال المأذون أحمد كرّار).

_إيه! مولانا شخصيًا في الصف؟ (قال مقبول)، البنكجي لو رآك سيعطيك قبل هذه الأمّة كلها، وأنت ما عليك سوى أن تعطيه قسيمة زواج.

_القسيمة هينة، المشكلة ما بعد القسيمة. (قال المأذون).

_يا حليل أيام الإنجليز. (قال مقبول).

_خرجتم وطالبتم بحق تقرير المصير وهتفتم السودان للسودانيين ويا غريب بلدك سوق معاك ولدك، والآن تتمنون عودتهم؟! نحن نريد من يخاف الله فينا سواء كان من الإنجليز أم الجن الأحمر. (قال الشاب صاحب الوجه المليء بالثآليل).

والكلام جرّ الكلام، وحاج ميرغني لا همّ له سوى الرغيف، جسده متعب ومفاصله خشُنت كثيرًا، يسرقه النعاس تارةً ويجذبه ضجيج الرجال والنساء تارة، ثواني الانتظار ليست كأي ثوانٍ، يلمح رجلًا بدينًا ملتحيًا يتسلل عبر فرجة في الصف، يتنبّه له مقبول ، يسأله: هل هذا مكانك يا مولانا؟

ينعقد لسان الرجل ولا يحري جوابًا، ويقول أحدُ الصبية إن هذا ليس مكان الرجل وإنما مكانه هو، فيقول الملتحي متداركًا: رأيتُ مساحةً في الصف فقلت أملأها حتى لا يملأها الشيطان.

فيضحكون جميعًا وينسحب الملتحي لآخر الصف، فيُسِرُّ حاج ميرغني: أنت الشيطان والله. وتعلو الضجّة ويوشك الناس أن يشتجروا، ينبههم البنكجي أن سقف الرغيف اليوم خمسٌ وعشرون رغيفةً فقط. وتأتي الاحتجاجات منطلقَةً من الصفوف:

_حسبي الله، أمس كنتم تعطون خمسًا وثلاثين.

_الله لا كسبكم، تبيعون الرغيف للمطاعم.

_بيتنا فيه أسرتان، خمس وعشرون رغيفة لا تكفينا وجبة الإفطار، أهذه حالة ترضي الله يا جماعة؟

وحاج ميرغني لا يحتج ولا يتكلم، يتقلص عدد الذين أمامه ببطء، يحسّ أن قواه خارت وأنه يجب أن يستسلم ويقفل عائدًا للبيت، فيبدأ الصف بالتحرك وينتعش الأمل في صدره ويزداد تصبُّرًا. لا يمر يومٌ على المجمع دون أن تحصل فيه شجارات وخلافات، تسجيل الأسماء فشل في تنظيم الناس، والبطاقات لا جدوى منها، الحل في الصف دومًا، تتقلبُ الأمزجة، ذات الذين تشاجروا قبل قليل هم الآن يتآنسون ويضحكون، ونفس الذين ضحكوا ها هم يتخاصمون، والشيطان يجرّب فيهم كل الحيل.

ويصل أخيرًا حاج ميرغني إلى الشبّاك، يمدّ كيسه للبنكجي، ظلال الضحى تبدأ بالتمدد والاستطالة، دَفَقٌ من الضياء يغسل المكان، تطقطق مفاصل حاج ميرغني ويذهب عنه الهم، يهتزّ صدره النحيل من الفرح، يستلم كيسه مملوءًا فينتشي، يسير ويترك وراءه كل القوم، يقف في منتصف الطريق يعُدُّ الرغيفات بكفّ مرتعش، يتأكد من أنها خمس وعشرون رغيفة بالتمام، وقبل أن يرفع رأسه ويتنشّق نسمات الصباح القادمة من جهة النيل يحدث ما لم يكن في الحسبان. تمتدُّ من العدم يدٌ ناحلة معروقة، تخطف الكيس، تلقي إليه يدٌ أخرى مائة جنيه، يرى حاج ميرغني شابين على دراجة ناريّة، يحمل أحدهما الكيس والآخر يسابقُ بالدراجة صوتَ حاج ميرغني الذي بدأ يستنجد.

منامات ساعة كوكو

"الباقي ساعة فقط يا بطل". قال أبي وهو يراني متكوّعًا على الأريكة مقبوضَ الوجه. هو لا يعلم أنّ لهذه الساعة التي على الحائط، وأن للشمس التي على السماء، مشكلةً شخصيةً معي، ربما لو أخبرتُه بذلك لضحك عليّ حتى يلمّ كل أهل البيت. لماذا عقارب الساعة مخدّرة بهذا الشكل، أهي معطوبة؟ لا ليست معطوبة، السر كله في هذه الشمس، والتي لو كنتُ بطلًا خارقًا لركلتُها بعيدًا وكفيتُ الصائمين المشقّة، أمي كانت تصبرني بأن الصائم أجره كبير عند الله وهو العبادة الوحيدة التي يجازي بها الله عباده دون حساب، أي مثل المرتب المفتوح أو أكثر، لأن المرتب المفتوح سيصل إلى مرحلةٍ ما لا يستطيع تجاوزها. وعلى سيرة المرتب المفتوح، جارنا آدم يعمل مهندسًا في شركةٍ أجنبيّة بمرتب مفتوح، ومنزلهم عمارة كبيرة وعندهم مولّد كهرباء، ومع ذلك أولاده يصومون نصف يومٍ فقط، ألستُ بطلًا يا جماعة؟

دخلت أختي المطبخ لمساعدة أمي في تجهيز أطباق اليوم، ولا تخدعكم كلمة أطباق هذه، فمثلنا مثل بقية أهل الحي، في الصينية صحنٌ للبلح وآخر للبليلة (وأحيانًا ندمجهما في صحن واحد) والصحن الأساسي إما عصيدة أو قراصة أو فتّة، ولا يتغير هذا الوضع إلا إذا جاءنا ضيوف. ضحكت أمي فور رؤيتي واقفًا قرب باب المطبخ وعيناي زائغتان، صبّرتني أختي وقالت: صينية اليوم ستكون غير لأنك صمت. هما تعلمان جيدًا عشقي للفطائر، وأن الصينية لن تكون "غير" إلا لو كانت الفطائر موجودةً فيها (يمكنكم إضافة هذا الظرف، أي ظرف صيامي، إلى الظروف التي تتغيّر فيها أطباق الصينية). الصداع يطوّق

رأسي كالعمامة، وفتورٌ حاد تطحلَبَ في مفاصلي، جسمي يرشَحُ ومخي يفور، والوقت يراهن على عزيمتي، الشمس لا تريد الأفول، والتيار الكهربائي مقطوع منذ الصباح. اقترح علَيّ أخي الأكبر أن أتدوّش لعلي أرتاحُ قليلًا، لكنه لا يعلم أنني تدوشت ظهر اليوم ثلاث مرات، نصحني أبي بقراءة وِردٍ من القرآن، حاولت فلم أستوعب شيئًا، عيناي تتحركان على الأسطر بسرعة، روائح الطعام تعلقت بخطافاتها في منخري، والفطائر بدأت تتكوّر وتستطيل وتتثلث. قررت أن أجلس على المسطبة أمام بيتنا، وكانت الشمس قد أطلقت سراح الظلال، وبدأ السموم يلملم أمتعته ويرحل، رأيتُ مروان وبخيت (ابنا آدم صاحب العمارة والمولد والمرتب المفتوح)، سألتهما إذا صاما اليوم، قالا كأنهما حققا بطولةً رهيبة: صمنا حتى الثالثة.. وأنت؟. عقدتُ شفتَيّ مستهترًا، وابتسمتُ في تهكُّم، وقلت: أنا إلى الآن صائم. اندهشا، وبعد أن اندهشا كذباني، غاظني الأمرُ جدًا، قلتُ لهما اسألا أمي وأبي وأرائك البيت ودوش الحمّام. قالا لي: وهل تقارن نفسك بنا يا محمود؟ أنتَ ما شاء الله لك مخازن استراتيجيّة. (نعم قالاها بهذا اللفظ ولا أعلمُ من أين لطفلين في عمرهما أن يجيئا بهذا اللفظ)، وأردفا: من المفترض أن تصوم الشهر كله. وهذا حرّق قلبي حرقًا لأنهما ظنّا أنني لم أعانِ، وتلهّفتُ أن يحين المغرب لأعلن فوزي على الملأ في برش الفطور.

قام أهل الحي ببسط فَرْشَاتِهِم في سَاحَةِ الإِفْطَار، ومُلئَت الأبَارِيقُ للوضُوءِ، وبَدَأَتِ الصّوَانِي تَخْرُجُ مِن كُلِّ بَيْتٍ، أكْوابُ المَاءِ وأقداحُ العَصِير اصطفّت في خطين متوازيَيْن، وجاء حاج مضوّي وأولاده، وفيصل الخيّاط وأولاده، وعَطْوة الجزّار، وعمّار وعوض بَنْكجيّا المخبز البلدي (كان اسمه مخبز الماطوري والآن المدينة)، وجَاءَ جارُنا آدَم مع ابنيه مروان وبخيت، وعثمان أخي حمل

صينيّتنا وأنا معه أحمل صينيةً صغيرة بها أكوابٌ بلاستيكيّة خضراء، وأبي يحمل حفّاظةَ عصير الحلو مر وجَكّ عصير الليمون. وجلسنا كلنا نتبادل أطباق الطعام، وخفتُ أن يناول أبي صحن الفطائر الذهبيّة العجيبة لصينيةٍ أخرى، لكن أبي يعلم كل شيءٍ عنّي وهو شخص فنّانٌ وألْمعِي. دارت العصائر بألوانها بين الجالسين، بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء (السوداء هذه هي الحلو مر بالمناسبة وليس البيبسي كما كنت أتمناها)، والكل ينتظر حسين المؤذّن كي ينادي (هم يقولون إن حسين يفطر على الأذان البعيد أولًا ثم يؤذّن لنا، لأنه يؤذن متأخراً ويؤذن على مهله). الشمس صالحتْني بهبوبٍ بارد، والساعةُ تنشّطت ودارت عقاربها بسرعةٍ رهيبة.

ولمّا نادى المنادي... ولمّا نادى المنادي...

عنبر الحالات الحرجة

أم درمان مدينة عريقة وكبيرة.

هكذا كنا نسمعُ عنها في البلد، لكني لم أتخيلها بهذا الاتساع، وأنها تلم كافة أطياف الشعب السوداني، أكملتُ هنا ثلاثة أعوام منذ ارتحالي مع أسرتي إليها، وأظنني لم أكوّن حتى الآن الصورة الكاملة عن هذه المدينة، وأنا بطبعي إنسان لا يحب الضغوط، بسيطٌ مسالم، لكن أم درمان تجبرني أن أتأقلم مع طبيعة المدن ومشاويرها. أنا طارق إسماعيل الدسوقي، أبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا، وُلدتّ ونشأت في قرية حامد نارتي بالولاية الشماليّة، وارتحلتُ إلى أم درمان مع أسرتي عام 2017م، وأعتني بأسرتي أمي وأبي وأخي الوحيد، لم أتزوّج حتى الآن بطبيعة الحال، فهذا حال معظم الشباب هذه الأيام، ولا أفكر في الارتباط قريبًا، فالزواج سلسلة لا متناهية من الضغوط واللتزامات في هذا البلد. أفتقدُ مؤخرًا أسرتي بشدة، منذ فترةٍ طويلة لم أرهم، حكم علَيّ سفري المفاجئ والاضطراري بهذا الأمر، سفرٌ طويل لا أعلم متى ينتهي، أفتقدُ أخي كثيرًا، آخر مرةٍ رأيته فيها كانت في ذلك اليوم المشؤوم في مشفى أم درمان التعليمي، حيث كان يحتضنُ شخصًا غريبًا لم أعرفه ويبكي عليه بحرقة، أتذكر تفاصيل ذلك اليوم جيّدًا.

صحنا بهم أكثر من مرّة وأخي يدفع النقّالة التي يرقد عليها المصاب:

_حالة حرجة يا جماعة... أفسحوا الطريق.

وقبل أن ندخل عبر بوابة المشفى وننجح في اختراق الحشود المتكدّسة لفحتنا رائحةٌ مدوّخة من العنبر يمين المدخل، مزيجٌ من رائحة الدم والبول والصديد، جميعُ الأسِرّة في العنبر مشغولة، اضطررنا لإبقاء المصاب على النقالة لحين خروج أحدهم، كانت الروائح تملأ ردهات المشفى، الممرات تعجُّ بالناس ما بين مصابين ومرافقين، على نقالات، طاولات، أو حتى على الأيادي، الحالات تتوالى عبر البوابة، قرر أخي أن يتصرف فسأل أحد العاملين:

_حالة المصاب خطرة للغاية.. أهناك طبيب يستطيع إسعافه خارج العنبر؟

فقال له العامل الأنيق بصوتٍ ناعم وهو يهش عن وجهه بالأوراق التي يحملها ما ظننتها كريهة الرائحة:

_وأين بالضبط.

_ذاك هو المصاب.

_أقصد.. أتريد إسعافه هنا في هذا الممر؟

_أين المشكلة؟ رأيت قبل قليل مريضًا على الأرض يسعفه بعض الأطباء.

_أتقصد الجنازة قرب البوابة؟ أولئك أهله وليسوا أطباء. لكن انتظر خمس دقائق ستعثر على سرير حتمًا.

ثم انصرف مباشرةً بكل برود. توقعتُ حسب فضول السودانيين أن يسألنا عما حدث لمصابنا، لكنه لم يفعل. ولم تمض خمسُ دقائق بالفعل حتى خرج أحدهم يسند امرأةً كسيرة اليد، على وجهها بعض الرضوض والزلطات، استوقفه أحد المساعدين الطبيين وهو يحمل دفترًا طويلًا، سأله عن سبب الكسر، فأجابه بنفاد صبر ودون أن يتوقف أو ينظر إليه:

_زحلقتها موزة... أهناك مشكلة؟

دفع أخي النقالة إلى العنبر، انتظرنا أحد العاملين كي ينظف السرير ويعقمه، ولم نخرج من باب العنبر حتى رأينا اثنين يحملان مصابًا ويضعانه على السرير دون أن يسألا أو يستأذنا، احتجّ أخي:

_لكنه محجوز.

فضحك أحدهما، وقد كان بدينًا ممتلئًا صحةً، يرتدي جلابية طوبيّة عليها بقع دم ملطخة بالتراب، ما ينم عن أنه ممن تعرضوا للحادث مع قريبه. ضحك ثم قال:

_هنا لا شيء اسمه محجوز. هذا مشفى عام.

وقال الآخر: وفي المشافي العامة إنها حوادث أم درمان.

_إذا أردت أسرّة بالحجز فاذهب للمشافي الخاصة.

وقالت امرأةٌ على السرير المقابل تمارض أختها حسب ما يبدو من الشبه بينهما:

_الحياة فرص. يبدو أنك لستَ من هنا.

وأنا انفعلتُ وقلتُ قاصدًا مصابنا وقد فار الدم في شراييني: لكنه سيموت!

لكن أحدًا لم يأبه لي.

قطع اشتباكنا صوتٌ على سريرٍ بعيد يلقّن الشهادة لصبي. وبكاء امرأةٍ تجلس قربهما، كان الصبي مثبتًا عينيه على السقف ورأسه مربوطة بلفةٍ سميكة من الشاش تتخللها بقع حمراء، ينكمش في حضن أبيه مثل عصفورٍ

نهيض، ثم شهق، شهق حتى خُيّل لي أنه شطف هواء العنبر كله، ثم جمد، حُمل على النقالة وتبعه أبوه محزونًا أما أمه فقد كان يملأ صراخها الدنيا أجمع. الغريب في الأمر أنني انتبهت، انتبهتُ ألا أحد غيري يولي الأمر اهتمامًا، كلٌّ مشغولٌ بهمه، ولوهلة أحسستُني في حلمٍ مزعج. أفاقني صوت المساعد الطبي وهو يطلب منا مساعدته في إنزال مصابنا من النقالة على ذات السرير الذي صعدت منه روح الصبي، وكانت معه طبيبة جميلة حديثة التخرج حسب ما بدا لي، لفت نظري شحاطتها الوردية، أحسست أنها تسكن هنا، ظلت تسأل أخي وتكتب على كراستها تفاصيل ما جرى مع مصابنا:

_الذي حصل؟

_صعقة كهربائية.

_هل يعاني من أمراض مزمنة؟

_سكّري فقط.

ثم جسّت نبضه، قاست ضغطه وسكره، وقالت كلامًا خطيرًا بصورةٍ لا تشي بأي تعاطف: يعاني من هبوط حاد في الضغط وانخفاض في معدل ضربات القلب، أسرع بإحضار هذه الأدوية وزجاجتين من الدم فصيلة بي بوزتيف. بسرعة.. هل أنتَ بي بوزتيف؟

_لا، لكن سأجد متبرعًا هنا.

هرول أخي بحثًا عن الأدوية والدم، لم يسمعني وأنا أقول له أنني بي بوزتيف، ظللتُ واقفًا قرب المصاب والطبيبة تعلق له محلولًا وريديًا بنفاد صبر، كانت تتحرك ولا توليني اهتمامًا، سألتها: ما اسمك؟

لم ترد عليَ، يبدو أن صوتي خرج واهنًا أو ربما كانت سارحةً في دنيا الهموم، سألتها مرةً أخرى: ما هي نسبة نجاة هذا المصاب؟

كنتُ بطبعي خجولًا، ولما لم أجد منها ردًا أمسكتُ لساني. عند خروجها من العنبر رأيتها خلف النافذة الزجاجية تتحدثُ مع أخي، فهمت من طريقة كلامها أن تصف له صيدلية أخرى خارج الحوادث.

وفجأةً دهمتني صرخةٌ أخرى ندّت من المصاب الذي يرافقه الشاب البدين صاحب الجلابية الطوبية والشاب الآخر صاحب الفانيلة الصفراء، كانت الممرضة تعقم جروحه التي يتفجر منها الدم، بطانتا رجليه شبه مفصولتين عن القدمين، تتعلقان بشظيات من الأنسجة المتهرّئة عند منبت الأصابع، قالوا إن سيارة طلعت فوق رجليه، والبدين يطمئن أهله ويواسيهم: قدر أخف من قدر. والعجوز التي قالت لنا (الحياة فرص) تقف حاملةً زجاجة المحلول الوريدي وتنظر لأختها بإشفاق، قالت لنا دامعةً وجِلَة: ادعوا لها، مصابة بالمرض الخبيث. والأب المحزون الذي طارت روح ابنه من بين يديه يتلقى التعازي عند مدخل المشفى وهو يخلص إجراءات الوفاة وأمه تسندها بعض النسوة ووجهها يقطر حزنًا وألمًا. والطبيبة العمومية صاحبة الشحاطة الوردية تتنقل بين أسرّة العنبر بوجهٍ عبوس وصبرٍ بلغ حده كأن ألف عفريت يتقافزون حولها وينغزونها. والرجل المهندم الذي صادفناه أول ما دخلنا الحوادث لا يزال يهش بحزمة الأوراق الكريهة الرائحة ويدخل ويمرق بين العنابر. لماذا نمرض ولماذا نموت؟ هذه الحياة لعوب تحب التجريب وهذا البلد منبتٌ للوجع. وانتبهتُ أن دمعةً ساخنة فرّت من عين مصابنا، تسارعت أنفاسه، خرج صوتي بكل قوته، نشدت المساعدة، لكن أحدًا لم يلتفت لي، غاظني جدًا عدم التفاتِ الجميع لي، لا كأنهم يتجاهلونني، بل كأنني لم أُخلق أصلًا. وبرد غيظي فور رؤيتي أخي تمشي

وراءه الطبيبة الجميلة وهي تقول: لقد تأخرت.. تأخرت.. تأخرت. وانطلقتْ عدة أصواتٍ في آنٍ واحد: صريرُ أسطوانة الأوكسجين، كشكشة أكياس الحقن والمحاليل الوريدية، صراخ الطبيبة، صفير جهاز المونيتور.

***

بكى أخي بكاءً حارًا، ضمّ مصابه طويلًا، قلتُ في سري: ما العلاقة بينهما؟ و من هو هذا الشخص العزيز؟ وجهه كان محروقًا فلم أتبين ملامحه. وبعد أن أفرغ أخي جيوب المتوفى سقطت منه البطاقة الشخصية التي تكشف هويته فقرأتُ من علٍ:

الاسم: طارق اسماعيل الدسوقي، مكان الميلاد: حامد نارتي-الشمالية، تاريخ الميلاد: 7 أكتوبر 1980م، الحالة الاجتماعية: أعزب، السكن: العباسية، فصيلة الدم: بي بوزتيف.

عيون خديجة

صاعقة، رعد، هواء عاصف.

الجنازة الموضوعة على العنقريب ساكنة، الجنين الذي في بطنها يتحرّك، يحسُّ بذلك ويرى ويتألم زوجُ المتوفاة. يرى تلك الحركات الخفيفة في بطنها، يعض شفته وتنزلق دمعة حارّة على صدغه. قالت له القابلة: ابن سبعة أشهر، إذا خرج للدنيا لن يعيش، ادفنوه مع أمه. العاصفة تشتد، يعلو دوي الرعود والجنازة ساكنةٌ مهيبة، ابتل الجميع، ابتل الكفن وكذلك الأرض. قال بحسرة:

_قتلتها عين خديجة... قتلتها خديجة.

_قتلها الأجل يا صابر، وحّد الله.

_لا تقربها يا صابر، هذه المرأة الموت بعينه.

_سأخلِّص الناس منها إذن.

_ستقتلك حتمًا.

_لا طعم للحياة بعد زوجتي وابني.

_يا ابني سبب طرشها أنها كانت تنظر بإعجاب في المرآة لقرطٍ كانت ترتديه فأصابت نفسها بعينها ففقدت السمع، أتسلم أنت منها؟

_قتلت أباها وزوجها والفاتح إمام المسجد... خديجة المسكينة نفسها لا تعرف أن عينها ساحرة بامتياز، تفلق الصخر وتُلزم القبر.

ويقول رجلٌ قصير متين الجسم:

_كنتُ أحمل بستلة اللبن وأنا في طريقي للبيت، فلقيتها أمام بيتها وهي تدلق ماء الغسيل، ولم تمضِ دقيقة بعد أن ألقيت عليها السلام وانعطفتُ لداري حتى انشقّت البستلة وتدفق اللبن. أي والله كما أقول لكم.

ويقول آخرٌ بطول نخلة هرمة:

_هذا ليس أعجب من حكايتي، ففي العيد الماضي عندما كنتُ أمرّ على البيوت صادفتُ أم الحسن ومعها خديجة عند بيت العمدة، وكنت أرتدي جلابية بيضاء وساعة كاسيو ومركوب جلد النمر فعايدت عليهما وصافحتهما، ولاحظت أن خديجة تلحقني بنظراتها إلى أن دخلت بيت العمدة، ويشهد الله أنني وجدت الكمّون الذي في هذا الحجاب قد أصبح أنعم من الرماد.

ويقول أقربهم رحمًا لخديجة:

_لا تحكموا على المسكينة والله ما رأيتُ أطيب منها، ربما كانت كل هذه الحوادث صدف يا جماعة.

_سأقتلها يعني سأقتلها، سننتهي من هذا الشر وإلى الأبد. (قال صابر).

_الصبر تكليفٌ يا ولدي صابر. أرحام تدفع وأرض تبلع. الصبر جبر.

_الصبر جمر.

_يقطع خديجة ويقطع سنينها، استروا الجثمان يا جماعة!

***

البرق يشق السماء كصدعٍ عظيم، يركب صابر الكارو رفقة صديقٍ له، يعود البعض راجلين والبعض على دوابهم. الحمار يسعى بثبات نحو القرية، إذا ثبتت الأرض وتكشّف الطريق ينغزه صاحب الكارو بالسوط فيسرع، يتطاير الطين من إطارَي العربة التي تتمايل وتهتز، تدعس الأوراق المتساقطة الهشّة فتصدر صوت قرمشة خفيفة، تفزع الأرانب البرية وتتقافز يمنة ويسرة.

ثم يبرد المأتم وينام الناس، ويتسلل صاحبنا وسط النائمين متحسسًا طريقه في تلك العتمة، ينهق حماره فيسبّه ويضربه، يقف أمام بيت خديجة للحظات، ثم يشبّ على الحائط. يراها نائمةً في الفناء تغطي نصفها بثوبٍ كحلي، وكما يقفز القط يقفز صابر، وكلما تقدم نحوها علا شخيرُها، تتردد يدُه للحظة، الآن هي تنام على السرير وكل براءة الدنيا على وجهها، ثم يعزم أن يبقر بطنها فيسمع دبيبًا خلفه تحت شجرة التبلدي، يلتفت بجسده كله، يرى خديجة هناك تنظر إليه بلطفٍ قاتل ووجه وضّاءٍ مبتسم، لا يحري ماذا يفعل، وفجأةً تنهض تلك النائمة وتزيح عنها ثوبها، كانت خديجة أيضًا، تتدوّر عيناها ثم تصبح مثل الخيط، تُشل حباله الصوتية، يرتاح لطرقٍ على باب الشارع، فيُفتَح الباب وتدخل منه خديجة أيضًا، خديجاتٌ كثر يخرجن من الغرف والمطبخ والحمّام، نواقيس الخطر تُدق بأذنه، يجمد لسانه، تتبعثر أفكاره، تعتم الرؤية أمامه تدريجيًا، يذوب الكون أمامه ويتلاشى، يفيض الظلامُ مغرقًا الوجود، إلى الأمام أم الوراء يتجه لا يدري، لكنه نحو العدم يمضي، هناك شيء وراء ستار العتمة يناديه، يريده هو بالتحديد. يريد أن يقول نعم استجابةً لذلك الصوت لكن

صوته يخرج مشلولًا. وتهدأ حركة الظلام، وتمتدّ يدٌ عملاقة من وراء الحُجُب وتسحبه سحبةً واحدة، لا يستطيع إغلاق فمه، يندفع الهواء إلى جوفه، تتقصف خصلات شعره، يتسلّخ جلده، يستسلم متجهًا نحو العدم.

***

وفي الصباح يلتقي أصحابه في اجتماعٍ طارئ. يقول القصير الممتلئ: أين يمكن أن يكون قد ذهب؟ هناك أناس جاؤوا من قرًى بعيدة لتعزيته. ويقول أنحلهم وأطولهم قامةً: إن أحدهم لمحه على حمارته متجهًا نحو المقبرة. لعله زار زوجته. ويقول أطولهم لسانًا: أو لعل... (ويسكت). ويقول أقربهم رحمًا لخديجة: خديجة نفسها ليست في القرية منذ يومين كفاكم افتراءً على المرأة.

مرايا داخليّة

هذا السريرُ بحواملِهِ الذهبيّـة يشعرني بالراحة كلما نظرتُ إليه، وعندما أتمدد عليه وأطالع السقفَ المزجّجَ أو مرآةَ الحائط التي تشبه خليةَ النحل أغطُ في النوم بسرعةٍ أو في ذكرياتِ الزمن البعيد، أحيانًا أتذكّر مشكلةً قديمة استعصَى عليّ حلُّها، فمثلًا قالت أمي لي ذات شِجار:

Tu ne m'aimes pas tellement que tu parles arabe tout le temps.

لا أفهم لماذا تُفسّر أمي أنّ حديثي بالعربيّة يعني أنني لا أحبّها، أنا التي من أجل إرضائها تنصّرْت، حتى أنّ والدي زعل مني كثيرًا وقاطعني، لكنه قال لي في لحظةٍ حميميّة عندما ودّعني في المطار: إنكِ عاقلة، وحرّة بالطبع، وواثقٌ أنكِ ستختارين الإسلام في النهاية، ما من أحدٍ في الدنيا يعتنقُ ديانتين في نفس الوقت يا نور. المطارات أصبحتْ مصدر توترٍ بالنسبة لي، لأنها تجعلني أفكر فيما ينتظرني عقب كل رحلة، كيف أنني يجب أن أكون فرنسيّةً إلى أبعد حدٍ ممكن وأنا مع أمي في باريس، وإلى أيّ مدًى يجب أن أكون سودانيّةً أصيلة وأنا مع أبي في أم درمان، ما الملابس التي يجب أن أرتديها؟ ما اللغة التي يجب أن أتحدث بها؟ وما موقفي من العادات والتقاليد بين المدينتين، أصبحتُ في نزاعٍ بين شخصيتين تتبادلان تلبُّسي في كل مرةٍ أقطع فيها المتوسط ذهابًا وإيابًا؛ فمع أمي أنا مسيحيّة، متبرجة، لا أتورع عن الحديث إلى الرجال أو مصافحتهم، أخرج من البيت متى شئتُ وأعود متى شئت، ومع أبي أنا مسلمة، ملتزمةٌ بالحجاب، لا أختلطُ بالرجال ولا أفعل شيئًا دون إذن أبي، صارتْ عندي

خزانتا ملابس، واحدةٌ بها بناطيل وأقمصة وتي شيرتات وفساتين مكشوفة الصدر والظهر وهاي هيلز، وأخرى بها عباءات وجلاليب وأخمرة وصنادل، لكنْ يظلُّ هذا الوضع رغم تعقيداته أفضل بكثيرٍ مما كان عليه قبل طلاقِ والدَيّ.

أبي هو أحمد بركات، يعمل لدى شركةٍ للسفر والسياحة، أربعينيٌّ محافظٌ فُتِن بجمال أمي فلورا قلاديسون، مضيفة طيران، التقيا في مطار شارل ديغول وأحبا بعضهما كما في الأفلام الرومانطيقيّة – من أولِ نظرة، تزوّجا في غضون شهر مخالفين رأيَيْ أسرتيهما، قالتْ جدتي لأبي: فرنسيّة ونصرانيّة! بأي مصيبة أكبر يمكن أن تأتي السماء يا أحمد؟ وقالت جدتي لأمي:

Oh Jésus, aidez-moi... un arabe et un musulman, ô Flora?

لكن الأسرتَين ارتضَتَا هذا الزواج في النهاية، قالتا إنها فرصة لضخ دماء جديدة في نسل العائلتين، طريقة لمزج ثقافتين متضادتين، لننسَ الماضي ونبدأ عصر التفاهم والانفتاح! وهكذا زُفّت فلورا لـأحمد في المطار بلا طقوس أو زفاف، عقدُ القِران بحضور أهلها قبل إقلاع الطائرة بساعة، ودّعتْ أهلها وانتقلت لـلسودان ووُلدتُ أنا في أم درمان. النزاع بين أبوَيّ علَيّ بدأ منذ ميلادي، حيث قال أبي: نسميها فاطمة، وقالت أمي:

Quel est le problème avec le nom de Mary?

وبعد أخذٍ ورد داما طويلًا توصلا لتسميتي اسمًا وسطًا بين الثقافتين، فاختارا لي اسم نور.

لا أعلم كيف استطاع أبوَيّ العيش لعشرِ سنواتٍ تحت سقفٍ واحد وهما صورةُ النقيضِ للآخَر، مرآتان تنفتحُ كلٌّ منهما على الأخرى بتضاداتِ

حضارتَيْن، ذات مرّة سألْتُ أبي: لماذا تزوجتَ أمي؟ لم يفكر ولم يتردد وقال وهو يشعل سيجارةً: لأنها جميلةً، وسألتُ أمي نفس السؤال فأجابت:

Parce qu'il était différent…

لم يقل أحدهما إنه يحبّ الآخر. وظننتُ طويلًا أن هاتين الصفتين كافيتان للزواج: على المرأة أن تكون جميلة وعلى الرجل أن يكون مختلفًا، وبالرغم من أنّ صفة (مختلف) فضفاضة جدًا وتستلزمُ توضيحًا حول ما هو هذا الاختلاف، إلا أنني جعلتُ أبي مقياسًا لكل رجُلٍ آخر فكل من يشبهه فهو مختلف. أمي فلورا آيةٌ في الجمال، تقول إنها رُشّحَتْ غير مرةٍ كي تكون ملكةَ جمال العالم وأن أبي رفض أن تقبل الترشيح، قطع عليها طريقًا من النجوميّة والشهرة والثراء، يقول لها: لا أرضى أن تكوني تحفة الأنظار في كل العالم. ولم تقتنع أمي أن يكون جمالها عيبًا وأنه يجب ألا يراه أحدٌ غير أبي، وبدأ أبي يفرض عليها تغطية رأسها بالطرحة عندما سمِعَ كلام الناس عن أنّها تتجول مكشوفة الرأسِ في كل مكان. قال لها بعد ليلةٍ طويلة من الشجار اضطرت بسببه أمي للنوم في الصالة: جمالُكِ مِلكي، وأنا الوحيد الذي يحق له التمتّع به، وقالت أمي:

Tu as changé, Anis.. Tu n'es pas celui que j'ai épousé à l'aéroport.

هتف أبي: لم أتغيّر يا فلورا...أصبحتُ فقط أغار.

وسألتْهُ أمي ببرود:

Tu es jaloux de tout ?

قامت من على الأريكة وهي تمسَح دموعها وأردفتْ:

Je suis au chômage, je n'ai pas de compagnons masculins, et j'ai été obligée de me couvrir les cheveux pendant longtemps... mais je ne peux pas supporter tout cela.

نزل أبي إليها دون أن ينتبه إلى وجودي عند بداية السلّم، أجلسها وقال لها: منعتُكِ العملَ لأنه لا حاجة لنا به، راتبي يكفي ويزيد، أردتكِ أن ترتاحي بالبيت وتتفرغي لشؤونه، ثم ماذا تنتظرين مني أن أفعل وأصدقاؤك من الرجال أكثر من النساء! غيرتي لا تتحمّل هذا، أما الحجاب فأنا لم أفرضه عليك، قلت لك عندما نزور فرنسا لكِ مطلق الحرية في ارتدائه أو خلعه، لكن في السودان لا. وصفتْه أمي بأنه ضعيفُ الشخصيّة ويتحكم به أهلُه ويخرّبون عليه حياته، وإلا فكيف يسمح لها بخلع الحجاب في فرنسا وهنا لا يرضى، قالت إن الستة أشهر من كل سنة التي تقضيها في أم درمان تصبحُ جحيمًا وأقفلت كلامها صارخةً:

Et ta stupide mère, je ne supporte pas de vivre avec elle.

حينها ودون أن يشعر أبي امتدّت يده وطوّحتْها على الأريكة بلطْمةٍ ساخنة، قال لها: أمي غبيّة! أمي أنا يا فلورا!، أوشكَتِ الأريكة على الانقلاب من قوة اللطمة، وصرختْ أمي حتى وجدنا عمّاتي وجدتي لاهثاتٍ عند باب الشقّة، دلفنَ بجلابيبهن الوسيعة لاعناتٍ إبليس، عماتي الثلاث هدّأْنَ أمي وضممنها، التففن حولها كالثعابين، أحسستُ بفرحتهن بضرب أبي لها وتأديبها، هذه المرأة الخواجية المارقة والكافرة. أما جدتي فظلت تحوقل وتحسبن وقالت: عين دخلت بينكم.. اخزِ الشيطان يا أحمد، وأجلَسَتْه على الأريكة المقابلة وقالت له: لا يصح أن تضرب زوجتك يا ولدي، قالتها وأنا أحسُّ بنظراتِ الفخر المختبئة وراء عينيها، لأن أبي لم يكسر عينها ونجح في أن يكون رجُلًا كما

الرجال هنا. لكنّ أمي انتفضت، أتذكرها ببيجامة النوم الذهبيّة تلك وهي تتملّصُ من بين عمّاتي وتقول:

Même assez ici. Je vais demander le divorce, arrêter cette farce et rentrer en France.

وقد كانت جادةً حقًا.

في المطار كنتُ أنتظر موعد إقلاع الطائرة المتجهة إلى باريس، هكذا أصبح عامي؛ ستة أشهرٍ أقضيها مع أمي في باريس وستة في ود نوباوي بأم درمان مع أبي. قربي على المقعد المقابل امرأةٌ خمسينيّة تأكل كرواسونًا بقرف، يبدو أنها فرنسيّة عاشت طويلًا في إفريقيا، ربما تكون من المغرب، أو الجزائر، قد تكون مولودةً هُنا، كثيرون من هم كذلك، رجلٌ زنجيّ بدين يحملُ كرسيًا مغلفًا كي يشحنه مع الحقائب جلس قربها، يقول لها إنّ الطائرة لم يبقَ على موعدها سوى نصف ساعة، يقول لها أيضًا: أمي!، وتأرجح نظري بينهما باحثًا عن أي وجه شبهٍ بينه وبينها، هذا الزنجيّ لا يمكن أن يكون ابنها إلا بالتبنّي، ولما انتبها لتحديقي المستمر صرفتُ نظري وتظاهرتُ بالعبث في الهاتف. يبدو أنني لستُ القنطرةَ الوحيدة بين شمالِ البحر وجنوبه، هناك آلاف القناطر أيضًا بين مختلف الجنسيات، لكن ليس بالضرورة أن يكونوا منحوسين مثلي.

فكرتُ أكثر من مرة في أن أبدأ حياةً جديدة بعيدًا عن أبي وأمي، حياةً أعيد فيها استكشاف ذاتي وأجيب فيها أولًا على سؤالٍ كبيرٍ في حياتي وهو: من أنا؟، قد ينتهي بي الحال عدَميّة وربما مُلحدة أو لا أدريّة، من يدري في أي مِلةٍ سأكون، سأفكّر براحتي في موضوع الزواج والإنجاب، ولن تُلحّ جدتي لأبي علَيّ بسؤالها المزعج: متى تتزوجين ونفرح بك يا نور؟، ليس بالضرورة أن يكون مصير كل أنثى الزواج والإنجاب، من حولي بسطاء، يختزلون الحياة بمجملها في

الأكل والجنس. يخططون – أبي وعماتي – لتزويجي بعباس ابن عمّتي، هو شابٌّ ثلاثيني وسيم ذو لحيةٍ تدل على التديُّن، لا يشبهني في شيء، يبدو أنه لم يمسسْ امرأةً طيلةَ حياتِه، سعران وتتقد عيناه اشتهاءً ولذّةً مكبوتة، سنتطلق من أول شهر، متأكدة، أما أمي فتخطط لتزويجي بـمارسيل ابن صديقتها المقربة كلويا، لم أجد الوقت المناسب لأقول لأمي إن مارسيل هذا زبونٌ للمثليين وقد كان على علاقةٍ بتاجر أقمشةٍ في الحي اللاتيني. ها هو الزنجي البدين يسند أمه ويلملمان أكياسهما، عبر المكبرات يتردد الصوت بوصول الطائرة المتجهة إلى مطار شارل ديغول.

***

الفترة التي أقضيها مع أمي عادةً لا تُقرّبُني منها، يكون مجرد الكلام دائمًا صعبًا، حتى في الأوقات التي تكون فيها بالمنزل متفرّغةً من العمل، تعطيني المصاريف وتقول لي: Amuse toi وتُغلِق على نفسها الباب، ليلة البارحة وعند عودتي من سهرةٍ مع صديقاتي التقيتُ عند الباب رجُلًا ولأول مرة، يبدو من ملامحه أنه قد تجاوز الأربعين لكنه يمتلك جسمًا رياضيًا و(فورما) مثيرة، قال لي مصافحًا:

Bonsoir, Mlle Nour... Je suis Friel.

كأنه يعرفني من زمان، شكرْتُه على لطفه ودخلتُ البيتَ على عجل، هذا أمرٌ عادي، أن تكون أمي مع صديقٍ لها في البيت حتى وقتٍ متأخر، وعاديٌّ أيضًا أن تكون قد حكتْ له كثيرًا عني وأرَتْه صُوَري، لكن الغير عاديّ بالمرّة هو أن أجِد أمي في غرفتها وهي ممددة على سرير النوم عاريةً وفي حالةِ انتشاءٍ

تام. عندما رأتني تفاجأتْ قليلًا ولم تقل شيئًا وصعدتُ إلى غرفتي بلا كلامٍ بيننا. هل كان الصراع بين أبويّ عليّ لأنهما يحباننني ويخافان علَي، أم أنه امتدادٌ لسعيهما الدائم لانتصار كلٍّ منهما على الآخر، صراع قديم بين شمال المتوسط وجنوبه، انعكست آثاره على أكثر العلاقاتٍ الإنسانية حميميّة، أبي الآن يُجري ترتيبات زواجه من امرأةٍ ثانيـة، سودانية من الريف ومن أسرة متديّنة، وأمي تعيشُ حياتها مع عشيقٍ جديـد غير مكترثةٍ بكل شيء، أين موقعي أنا من هذا كله؟ أحيانًا أشعر أن دراستي للفلسفة تجعلني أعقّد الأمور وأهوّلها بدلًا من العكس، لكن معطيات الواقع محيِّرة، كانا يقولان إنهما عاشا أسعد أيام حياتهما في السنة الأولى من الزواج، كانا آيـةً من الآيـاتِ المبرهنـة على أنّ الحُب الحقيقي والصادق ما يزال موجودًا حتى اليـوم، ما إن جئتُ أنا حتى بدأ كل شيءٍ باللانهيار، حينما أعود لـلسودان سأجد أمًا جديدة، لا تعرف عني شيئًا، قد تكون زوجة أبٍ تقليديّـة، سيئـة وقاسيـة، وقد تكون أمًا طيبـة، لا يفرق كثيرًا، كذبتُ على أبي بأنني سأعود لحضور العرس، سيزعل بلا شك، لكنني لا أبالي.

ها هو مارسيل يتصل بي، الأخبار هنا في باريس كـود نوباوي تمامًا سريعة الانتشار، رغم أنني حذرتُ أمي وصديقاتي بإبقاء أمر عودتي إلى فرنسا سرًا هذه الفترة، قال لي عبر الهاتف:

Je t'attends à la porte.

لم يتغيّر كثيرًا سوى أنه غيّر تصفيفة شعره وازدادت بنيته العضليّة، تمشينا كثيرًا ذلك الليل، تبادلنا الأخبار والكثير من الثرثرة، عن الطفولة والمدرسـة والأصدقاء القدامى وعن الزواج، المشي في الليل تجربةٌ مثيرة، الحديثُ فيها يأخذ بعدًا وجدانيًا صادقًا، نكون فيه أكثر جرأة من النهار، ربما لأن الليل

غطاء، لذلك نكون تحته أكثر تجرُّدًا، فهمتُ منذ أن اتصل بي الغاية من زيارته الليلية هذه، قلتُ له إنني لا أفكّر بالزواج حاليًـا، حاوَلَ تغيير الموضوع إلى خِطبة فقلتُ له إنني لا أفكر في الارتباطِ برجُلٍ حاليًا بأيّ شكلٍ من الأشكال، وقلت له ممازحة:

Peut-être que je suis lesbienne et je ne sais pas…hahaha.

أعتقد أنه قد فهم تلميحي بأنني أعرف ميوله التي يخفيها، غريب حقًا، شخص في مكانه لم يكن ليخفيَ هذا الأمر وربما لأقام حفلًا نخب ذلك، هو ليس من أصولٍ عربيـة ولا من أسـرة متدينـة حتى يخفي ذلك. لم يعلّق على كلامي واكتفى بالصمت. عند البوابة ودعني قائلًا إنه يتمنى لي حياةً سعيدة وسيعرِّفني ببعض السحاقيّـات الوفيـات هنا إن كنتُ أرغب بذلك. قبّلَني ومشى.

قضيتُ لَيلي ساهرةً أفكّر في الماضي والمستقبل، أحمد بركات وفلورا قلاديسون، عباس ومارسيل، ما الخطوة المقبلة؟ وكيف سأتعوّد على شكل العلاقة الحالي بينَ أمي وأبي؟ إلى أي ثقافةٍ سأنتمي؟ وأيّ ديانة سأعتنق؟ تمددتُ على السرير تحت لحافي الأثير. هذا السريرُ بحواملِهِ الذهبيّـة يشعرني بالراحة كلما نظرتُ إليه، وعندما أتمدد عليه وأطالع السقفَ المزجّجَ أو مرآةَ الحائط التي تشبه خليةَ النحل أغطُ في النوم بسرعةٍ أو في ذكرياتِ الزمن البعيد، أحيانًا أتذكّر مشكلةً قديمة استعصَى عليّ حلُّها...

عَصْرُ الدَجَاج

لَم يَنْعتْها أحَدٌ بالجُنُونِ ذاكَ النّهَار حِينمَا قررَتْ أن تُطفئَ الشّمسَ، فمُنْذُ أن استيقظَتْ آمنة مُضَوّي وهي تُطَالِعُ وَجْهَهَا في المِرآةِ حتى أنها نَسِيَتْ أن تُحضِرَ لَنَا الطّعَامَ في القَنّ، ولشِدّةِ اسْتِغْراقِهَا في المِرآة لم تلْفِتْ انْتِبَاهَهَا نَقْنقتُنا المسْتَمرّة، ويبدو أنها نسيَتْ تمامًا أن اليومَ هو موعدُ زيارةِ عاملِ المصنع لأخذِنا بعد أن باعتْنا مُقدّمًا، اضطُرِرنا للخُروج متتابعاتٍ لرؤْيَة ما أَخّرهَا عَن نَثْرِ القَمْحِ، وجدناها أمامَ المرآة ساهِمةً، لاحظْنا ازديَادَ حَجْم الشّامَةِ المغْرُوسَةِ أعْلَى يَسَارِ فَمِهَا، ولاحظْنَا أيضًا قُشُورًا حمراءَ تغلّفُ تلك الشّامَة، وحينما رفعَتْ يَدَهَا لتُزِيلَ القِشْرَةَ رَأيْنا عَلَى يَدِهَا نُدوبًا سَوداءَ تُغطِّي كَامِلَ يَدِها، ثُمّ عَلَى رِجْلَيْهَا وَكَامِلِ جَسَدِها، لِنَكْتشِفَ فور خُرُوجِنا راكضاتٍ خَلْفَهَا وهي تصرُخ أنّ جَمِيعَ أَهْلِ القَريـَةِ قَدْ أُصِيبُوا بِهَذَا الدّاءِ؛ أورامٌ صَغيرَةٌ مُتبَايِنةٌ، بعضها بِحَجْم حبةِ السمسمِ والآخرُ بحجمِ الليمونِ، بعضها بُنّي مُهَلهَل الحَوافِ والآخَرُ فاحمٌ مقبّبٌ محدّد وتساءلنا بِخَوف: ماذا عَسَاهُ يَكون؟

ولأنّ العِيَادَةَ بِهَا طَبِيبٌ عُمُوميٌّ واحد ومخبريٌّ متقَاعِد وكلاهما قد أُصيبَا بذات الدّاءِ، فقد مَكَث جَميعُ الأَهَالي طَويلًا أمَامَ العِيَادة، أطفالًا، شيوخًا ونساءً، نَحومُ بين أقدَامِهِم متفقدين بغرابة أَحْوَالَ ما بَاتَ يحدُثُ في قَريَتِنَا، وبالمرّة نلتقِطُ ما تَسَاقَطَ على التراب من حَبٍّ وغلالٍ وعيش، حتى وصلَ تشْخيصُ العينَةِ التي اقتَلَعَهَا المخْبَريُّ من جبهته حتى نَزَفَتْ، هذا ما رأتْه كوكو البدينة وهي تحط على شُبّاك العيادة تتجسّسُ وتتحسّسُ، ومفادُ التقرير أنّ ما نَزَل على القَرْيةِ من بَلاءٍ هو وَرَمٌ ميلانيٌّ خبيث، هكذا سمعنا المخبري وهو يُكَرّرُ

النَتِيجَةَ بذُعْرٍ أمام الناس على عَتَبَة العيادة، وتساءلْنا مُنَقْنِقِين: وما الورَم الميلاني هذا؟، وطرح الطبيبُ سؤالين كَبيرَين جدًا رأَيْنا علامتَي استفهامهما تَطُولان سَقْفَ العِيَادَة: كيف يمكن لورمٍ خَبيثٍ يُصيبُ الجِلْدَ -هذا العُضْو الظّاهِر للعَين- أن يظهر بهذه الفجَائِيّة، والثّانِي والأَهَمُ مُنذ متى أَصْبَحَ السّرَطَان ينتقل كَنزلة البَرد حتى يُغطّي بلدةً بأكملها في ليلةٍ واحِدة؟، وقالت لنا سوسو بنقنقةٍ مُتَفَلسِفةٍ تنبع من حُبها المستمر للقراءة في شتّى المجالات منذ أيام مدرسة "بوك كوك" للتّعليم إنّ الطبيب سيحتاجُ وقتًا طويلًا ليُبيّن للجميع أن الميلانوما هي أخْطَر سرطانات الجلد وأنّها تُصِيبُ الإنسان نتيجةَ تعرُّضه للأشعةِ فوقَ البَنفسجيّة -عليه حِينها أن يشرحَ أيضًا ماهيّة الأشِعّة فوق البَنَفسجيّة- وأنها تُصِيبُ بالأَسَاسِ ذوي البَشرَة الفَاتحة بالتحوُّلات السّرطَانية، وأنه لشَيءٌ غريبٌ حقًا أن تُصاب قريةٌ بأكْمَلهَا بهذا الدّاءِ، لذلك قرّرَ الطبيبُ أن يُغلِقَ على نَفْسِهِ البَابَ وينْصَحَهُم بالمُكُوث في بُيُوتهم وتحتَ الظِّلالِ قدرَ الإمكان إلى حِينِ أن يتَواصَلَ مع خُبَرَاءَ من الخرطوم لحل هذه المشكلةِ.

والُمشكلة أنّ جَميعَ من في الخُرطُوم قَد أُصِيبُوا بِهَذَا الداء أيضًا، هَذَا ما تَنَاوَلَهُ النّاسُ أَمامَ العيادة وهم ينتَظِرونَ حلًا، وما إن دبّ الصباح وتمكّنَ حتى تبيّن أنّ العالمَ بأطْرافه قد اكتسحَتْه هذه الميلانوما، وتَصَدّر الحدثُ نشراتِ الأخبار، وقال عبد الله الفكهاني وهو يطوّق راديوه تحت إبطه إن مهاتفات دوليّة جرتْ بين السفاراتِ والوزارَاتِ، وسَمِعْنا فوقنا حَفيفَ أشْجَار التّبَلدِي الهامِسِ بهذه الكَارِثَة العالميّة، وقال المخْبَري عبر الشبّاكِ للجَمِيع أنْ يحمدوا اللهَ على ما أصابهم فقد ظهرتْ حالاتٌ أشدُ غرابة في بِلاد الكفّار حيث تحوّل أناسٌ بأكملهم إلى كُتَلٍ سوداء من الميلانوما وبدأوا يَنِزّون دمًا وصديدًا، وسَألْنا سوسو المثقفَة عن كَلمةٍ قالها المذيعُ ونحن رابِضَاتٌ تحت عبد الله الفكهاني نستمع

إلى الرّاديو: وما هو الأوزون؟، وواصَلَ المذيعُ عبرَ النشْرَةِ مُوضحًا أسْبابَ زِيادَةِ ثقب الأوزون هذا وآثارِه الخَطيرَة، فقال إن النّاسَ مُهدّدُونَ بالعَمَى ويجِبُ أن يضَعُوا نظاراتٍ شَمسيّة وأن يبقَوا في الظِّلال وداخلَ البيوت قدر الإمكان، وقال إن الشّجَر لن يستطيع العَيْشَ وإن الزروع لن تنموَ وإنّ البهائِمَ مهددةٌ بالإنقِرَاضِ، وبينما هو يوضح آثارَ ثقب الأوزون ارتطَمَتْ شُعلة ملتهِبةٌ بسقْفِ العيادة وتدَحْرَجَت أمامَ الجميع منطفئةً مطلقةً الدخاخينَ ورائحةَ اللحمِ المتفحم كأنها جنّي يخرجُ من قمقمه، فحوقل الجميع وتعوّذوا، وبدأَتِ الشُعل تتساقط في كل مكان، وملأتْ رائحةُ الريش المحروق قطاطي القرية وأزقتها، وهرع الجميعُ إلى الأشجارِ تاركين ساحةَ العيادة فارغةً إلا مِن قطع اللحم المشوي التي تساقطتْ من السماء، وما إن حلّ العَصْرُ حتى لاحظ الجميعُ أنّ كلّ الطيور التي تحلق عاليًا تشتعل وترتَطِمُ بالأرض مشويةً في الحال، وحمدنا الله كثيرًا على عدم قدرتنا على الطيران وإلا لاقتربنا من الشّمْس أكثر ونزلنا وجبةً جاهزة للبطون، الظلالُ بدأت تذبُل حتى ما عادتْ تظلل إلا شخصًا أو اثنين، وتقصّفَ صوفُ البهائم وضمُرت أجسادُها، وحينما قرر عبد الله الفكهاني أن يرميَ نفسَه في النهر لأنه لم يعد يطيق سخونة الجو آلَمَه ارتطامُ جسده بقاع النّهر الجَاف، وحَسَمَتْ آمنة مضوّي تفكيرَها بأن الشمس هي السبب وبدأتْ تفكّر بصورةٍ جادة، جادةٍ جدًا، بطريقةٍ تطفئ بها الشمس؛ لأنّ مغيبَهَا سيتأخر ساعاتٍ وساعات حسب ما صرّح به الفَلَكيّون، والناسُ في قريتنا بسطاء لكنهم حصيفُون ويسعون دائمًا لفَهمِ كل شيء.

وبَدَأَتْ الظواهِرُ الغريبة تزداد ساعةً تلو ساعةٍ في قريتنا، فقد قالت كوكو البدينة إنها وأثناء تجوالها في المَزَراع قد وجدت أن جميعَ النّبَاتَاتِ قد اصفرّتْ وأن الثمار على الأشجار تعفّنَتْ ولأنها عادةً ما تبالغ في شطحها فقد قالت إنها

رأت شَجرةَ تبلدي تَقتلعُ بغُصنين متينين جذورَهَا وتفرّ هاربةً وتتساقط مع اهتزازاتها ثمارُ القونقليز وتتفتتُ عناقيدُه على الأرض، أما سوسو المثقفة فقد قالت لنا إن الحياة على الدنيا لن تستمر لأكثر من شهر، وفكرتُ أنا في سؤالٍ وجيه ومحيّر وسألْتُهُ لها مباشرةً: لماذا تتأثر جميع المخلوقات بما حدث ونحن الدجاجَ لا، ونَقْنَقَتْ وقَوْقَأتْ ولم تُفهِمني شيئًا وقالتْ إن الأمر له علاقة بشيءٍ اسمه الجينات وقلتُ لها أنا إن الأمر متعلق بمشيئة الله ولا تتفلسفي، وعادتْ كوكو البدينة تكردح بنقنقاتٍ متلاحقة وقالت إنّ عبد الله الفكهاني ما يزال ينطّ على النهر ويرتطِمُ بالقاع كل مرة ولا يستوعبُ أن النهر قد تبخّر، وأن آمنة تغرفُ من (زِيرِها) أكوازًا من الماء وترشها في الجو كي تطفئ الشمس وأن المخبري لا يزال في معمله يقتلع من جبهته الورم الذي يتبرعم كل مرة عقب انتزاعه وينمو من جديد وينزّ دمًا، وأما الطبيب فلم يظهر مرةً أخرى وقال المخبري إنه قد رآه يتحوّلُ إلى (غُبارٍ ضوئي)، بذات العبارة، لم أزد ولم أُنقِصْ حرفًا. وقلتُ لـكوكو البدينة: هل هذا يعني أن العصر القادم هو عصر الدجاج؟ وقالتْ لي: يا ليت! لأن الحياة إذا رجعت لطبيعتها فأنا أول من ستُذبح احتفاءً على العشاء، وكَرْكَرَتْ وقوقَأَتْ وتعوّذَتْ، وقالت سوسو: انظروا لِكَمِّ المصانع التي تحيط بالبلدة! انظروا إلى تلك الغيوم السّوداء والرماديّة! انظروا إلى سُموم الكربون الحمراء وهي تنشبُ قرنها الشيطانيّ العملاق فوق سماء دنيانا، إلى خيوط السم المنبعثة من السيارات على ألسنة الطرق أو الطائرات في عالي الجوّ أو البواخر في عمق البحار. وبدأنا بالجري والزّوْغ بين الأرجلِ والأشجارِ والقطاطي وسط هرولة الجميع من حيواناتٍ وبشر، نتزحلق حينًا من سرعة الركض، يُنتفُ من ريشنا، نقفز ونحطّ والعالم حولَنا مجنون، وقررنا أن نغادر المنطقة حينما يحلّ الليل واختبأنا في قَنّينا في ركنٍ قصيّ ونحن نراقب آمنة وهي ملقاةٌ على الأرض وقد تحوّلت لقطعةٍ سوداء بلا مَلامِح.

ومضى النهار متوانيًا، تعرّقنا كثيرًا وعطشنا، وقالت سوسو المثقفة نستطيع أن نتحمّل، الدجاج يغيّر جيناته كل عصر لذلك هو أكثر الكائنات الحيّة تكيُّفًا عبر العصور، ولم نفهم مما قالت شيئًا وقررنا ألا نسألها شيئًا مرةً أخرى، ومكثنا طويلًا داخل القن حتى دخل الفجرُ حثيثًا وقلت لصاحبَتَيّ: هل تظنان أن الجميع قد مات! وقالت كوكو البدينة: آمنة ماتت... لا أصدق هذا. وبكينا بكاءً صامتًا لأن الطيور لا أصوات لها في الليل، وسألَتْ كوكو سؤالًا: منِ السبب فيما حصل؟ وقالتْ سوسو منتهزةً فرصة السؤال إن البَشَرَ هم من جَنَوْا على أنفسهم وعلى كوكَبنا، هم من وَسّعوا ثقب الأوزون بالمَصَانع التي تضخ أطنانًا من الدخاخين فوق سماءنا، بالسيارات التي تلوّث الهواء، وبالمخلفات الكيميائيّة التي تُلقى في البحارِ والأنهارِ فتقضي على أشكالِ الحياةِ المائيّة، بقَطْعِ الأشجارِ ونسفِ الغاباتِ، بالحرائقِ المفتعلة وغير المفتعلة في كلِّ مَكَانٍ، بالقنابلِ والأسْلحةِ البيولوجيّة، بالفتكِ بالحَيوانات صيدًا وقتلًا وأسرًا، أليسَ من شأنِ هذا يا صاحبتَيّ أن يُحدث اختلالًا في هذه الأرض! وقلنا: بلى.. بلى.. بلى. وعند الفجرِ خَرجنَا يعبث بريشنا السّمُوم والأتربة العائمةُ في الجو، ومررْنا بالعيادةِ فوجَدْنا الجميعَ في رَقْدته الأبديّة، وغشينا الزّرائبَ فوجدنا الأبقارَ قد شبعت نفوقًا، والأعشاشَ فوجدنا الطيور قد زَهَقَتْ، وكذلك كان نخب الأرانبِ في أمكائِها، والأفاعي في جُحُورِها، والفِيَلةِ في أجماتها، والأسماكِ في أحواضها، وتبيّن لنا مدى خواء هذا العالم العجيب. وقالت سوسو مُستدْرِكةً: في هذه البلدةِ لا ديوك، كيف سيستمرُ نوعُنا؟ وقالتْ كوكو البدينة: وما العمل؟ واتفقنا على الرحيلِ عند الصباح بحثًا عن الديوكِ أو عن دجاجاتٍ أُخَر، وقلتُ لهما إنّ أقرب بلدةٍ من هنا لن نَصلَهَا في ثلاثةِ أيام من السّيرِ المُتَواصِلِ وهذا أمرٌ مستحيل، من أين سنأْكُل ومن أين سنَشْرَبُ؟ وقالت كوكو مهمومةً: لو أننا نطير لوصلنا سريعًا! وبقينا حائراتٍ بين البقاء وخوض مغامرة الارتحال المجهولة هذه. وعند ساعاتِ

الصباح الأولى استيقَظْنا على أصواتِ رفرفةٍ، وخَرَجْنَا من القَن أنا وكُوكُو لنجدَ سوسو تقفزُ وتضربُ بجناحَيْها وتَعْلَقُ في الجو للحظاتٍ وتسقط، نعتناها بالجُنون ونعتَتْنا بالاستسلام وقالت: إذا كان لا بُد من تغييرٍ مع كل عصر فأظن أنّ هذا هو عصر طيران الدجاج، يجب أن تحدث هذه الطفرة ونُخَلّد كأول دجاجاتٍ تطير في التاريخ. وبدأنا بالقفز ثلاثتنا، نضربُ بأجنحتنا حدّ تطايُر الريش ثم نرتطم بالأرضِ، نُحاول ثانيةً من فوق القن وثالثةً من فوق الشجرة، ورابعةً من سَقْفِ قُطيةٍ، نَعْلقُ في الجو للحظاتٍ ثم نَهوي ساقطاتٍ، وتلاحَقَتْ أنفاسُ كوكو التي عانت كثيرًا، وفجأةً وبينما سوسو تحاول بإصرارٍ عميق، تعلقت بالجو للحظاتٍ ولحظات وتأهبنا لسقوطها حتى لا ترتطم بالأرض، وهي ما تزال ترفرفُ وترفرفُ وترتفعُ وتدور، وهبطت بطريقةٍ لا إحترافيّة ونَقنَقَتْ بجنونٍ وجَزَل، وقلت في نفسي إنه حان دوري فرفرتُ بلا اتزان وتشقلبتُ في الهواء ونجحت، ونظرنا اثنتينا لكوكو البدينة وهي تُحاول وقوقَأْنا: أنتِ تقدرين. ونجحتْ في الطَيَرَان عاليًا لكنها فقدت توازُنها وأوشكت على دق عنقها بالأرض لولا أن لحقناهَا.

وعند الربوةِ، عندما بدأتْ الشمسُ تشرقُ من جديدٍ كأنها لم تفعل بالأمس فعلتَها، وفي دورَتِها إلى ما شاء اللهُ وقفنا ثلاثتُنا نرقُب أشعتها الذهبية وهي تغسل الميت من كل شيءٍ، ولاحظنا بَريقَ النّهر القرمزي ولمحنا فوقَهُ عبد الله الفكهاني طافيًا منتفخًا، وقالت كوكو: كسر عنقه وسال دمه حتى ملأ حوض النيل، وقالتْ سوسو بِعِبرة: إنها دماء كائنات الماء التي قتلتها الكيماويات قد استحالتْ نهرًا من جديد. ورأينا في السماءِ دجاجاتٍ على البُعد يطِرن بطريقةٍ خرقاء، وفردنا ثلاثتنا الأجنحة محلقاتٍ لاحقاتٍ بسربهنّ.

القسم الثاني

-الأحلام-

مجموعة الأحلام التي كنتُ أراها في منامي خلال الفترة 2018-2023م وكنت أدون كل حلمٍ منها فور استيقاظي من النوم بمثابة تمرين صباحي. هذه الأحلام تتجزّأ تارةً وتأتي كاملة تارةً أخرى، بعضها غير مفهوم، وبعضها شكّل نوىً لبعض القصص في القسم الأول، وقد أوردتها في هذا القسم مرتبةً ترتيبَها في الرؤى والمنام.

سيجارةٌ في الواقع، دخانها في الحلم (7 أغسطس 2018)

"رأيتُ في منامي أنني أجلسُ في مكانٍ عام مع صديقٍ لي، فأخرج علبة سجائر من جيبه وأعطاني واحدة، رفضتها بطبيعة أني لا أدخن، فدخنها هو ونفث غيمة كثيفة من الدخان في الأرجاء، تضايقت أنفاسي إثرها. وإذا بي أصحو من النوم فجأة وأجد عمي يدخن سيجارة".

***

ملوةٌ من الأسنان (10 أغسطس 2018)

"رأيت في منامي أنني أقف أمام المرآة، أضعُ كفّيّ مشبّكاً إياهما تحت مستوى ذقني، وأدفع بلساني جميع أسناني خارج فمي واحداً تلو الآخر، حتى تكومت جميعها بين كفّي".

***

تسريب (20 أغسطس 2018)

"رأيتني أشترك في مسابقةٍ أدبية مشهورة بروايةٍ لي، كنت من بين الحضور يوم إعلان نتيجتها في مؤتمر صحفي وكلي أمل بأن أفوز ، فإذا بورقةٍ تجيئني من أحد لا أعرفه وجدت بها أسماء الفائزين قبل أن يتم الإعلان عنهم، اسمي لم يكن بينهم".

***

عطرُ محبوبتي القديمة (2 سبتمبر 2018)

"رأيتني أقف أمام بيتنا، وإذا بالجو يصفو فجأة، ويتلون الأفق باللون الوردي. شممتُ العطر المميز لمحبوبتي القديمة. فوجدتها خلفي. ووجدتني فجأة أُوشكُ على تقبيلها والكون كله في دوار".

***

صاروخٌ في الحي (10 سبتمبر 2018)

"رأيت أنني أقف أمام بيتنا. جاء أحد الأطفال وقال لي إن صاروخاً سيسقط قرب بيت جارنا. وإذا بي ألمح صاروخاً يتجه نحو دار جارنا. هرب ذلك الطفل وهربت معه، وإذا بقدمَيّ تحيدان عن الطريق وتقوداننني صوب بيت الجار. حتى وقفت هناك. وتمددت على الأرض. سقط الصاروخ قربي مصدرًا صوتًا قويًا استيقظت على إثره".

***

نميري يعود (23 سبتمبر 2018)

"رأيت فيما يرى النائم مجموعة من الناس تحتفل في الشارع وتهتف بهتافات كثيرة. وإذا بعددهم يزداد أكثر فأكثر حتى ضاق الشارع بهم. سألت أحدهم عن السبب. فقال: نميري عاد ليحكم البلاد ويحسم الفوضى".

***

البحر يتلوّن (13 أكتوبر 2018)

"رأيت في منامي أنني على أحد الصخور في شاطئ البحر الأحمر وهناك مجموعات من الناس في الأنحاء، فإذا بالبحر يتغير لونه لأصفر فأزرق فأحمر، وكذلك كانت السماء، فأحسست بالاضطراب".

***

بيت العنكبوت (1 نوفمبر 2018)

"وجدتني في الحلم أشاهد التلفاز. فتنبهت لما حولي. فإذا جميع الجدران حولي مغطاة بالعناكب. عناكب صغيرة وكبيرة. ذوات ألوان متعددة. فهربتُ إلى الغرفة الأخرى، وإذا بالعناكب تغطي الأسرّة والستائر، وكذلك الحال في الصالون... ركضت وركضت حتى خرجت إلى الحوش وتنفست الصعداء".

***

مسرحية أنسى فيها دوري (2 نوفمبر 2018)

"رأيت فيما يرى النائم أنني أمثل دوراً صغيراً في مسرحيةٍ طويلة وحينما جاء وقت صعودي على خشبة المسرح نسيت دوري وما يفترض أن أقوله، فإذا بأحدِ الجماهير يرفع ورقةً كبيرة مكتوبٌ عليها مقولة لنجيب محفوظ. فقرأتها بصوتٍ عالٍ: (في الحياة لا أحد بوجهٍ واحد، نحن في مسرحٍ كبير، الجميع فيه ممثلون).

فإذا بالمسرحية تنتهي على نحو مفاجئ، وإذا بالجميع يصفقون، وإذا بالأشرطة الملونة تتطاير فتملأ الفضاء وإذا بالستار يُسدل".

***

بطيخة ولكن... (5 نوفمبر 2018)

"رأيتني أُقطّع بطيخة كبيرة شديدة الخضرة من الخارج وجذابة. فقلت إنه يوم سعدي. وعندما شققتها نصفين كانت مليئة بالدود الأبيض".

***

أين عروسي؟ (24 نوفمبر 2018)

"رأيت أنني أتزوج ومجموعة من الأصدقاء يحيطون بي يرقصون ويطربون، وزغاريد تأتي من حوش بيتنا. واختلطت الزغاريد فجأة، أو كما خُيّل لي، بأصوات نحيب وصراخ. لكن أجواء العرس ظلت كما هي. فخرجت من دائرة أصحابي ووجدت أمي في الشارع أمام خيمة العرس. سألتْني: أين تذهب؟ فأجبت: أين عروسي؟".

***

عبارات عظيمة (1 ديسمبر 2018)

"كنتُ أمام النيل وقد كان هائجًا يربد بالطمي، والسماء تتوشح الشفق، وعلى يميني الفنان محمد وردي وعلى يمينه الدكتور عبد الله الطيب. وكان وردي يردد عباراتٍ عظيمة يصلني صداها من الدنيا أجمع".

***

المرحومة تسألني (6 ديسمبر 2018)

"رأيت المرحومة عمتي في المنام وهي تركب (كارو) يجره حمار، يذهب بها إلى طريق نهايته مجهولة. حاولت اللحاق بها لكن كانت تعجزني المسافة. لكنها كانت توصيني خيراً بابنها وتقول: هل عيناه سليمتان؟".

***

النيل وأغنية (11 ديسمبر 2018)

"رأيتني أبيع العجور بالشطة على شاطئ النيل ومعي راديو يبث أغنية: أقابلك في زمن ماشي وزمن جايي وزمن لسة" .

***

ديناصور خلف الجبل (20 ديسمبر 2018)

"رأيت فيما يرى النائم أنني أسير في صحراء كبيرة مدّ البصر ، وصادفني أثناء مسيري جبل كبير، قلتُ أحتمي بظله من لفح الشمس، فإذا بديناصور يخرج من خلفه ويبدأ بمطاردتي".

***

يحيا الحزب الوطني الحاكم (5 يناير 2019)

"رأيتني أغني في موقف المواصلات أغنية شعبيةً جميلة والجميع مبهورون ويصفقون وبعد أن انتهيت هتفوا: يحيا الحزب الوطني الحاكم!".

***

لون البوهية (10 يناير 2019)

"رأيتني في المنام في نقاشٍ محتدم مـع أبي وأخي حول لون البوهية التي يجب أن تُطلى بهـا حيطان الصالون. أبي يقول: أزرق فاتح. أخي يقول: نيلي!".

***

رصاصة وأشرطةٌ ملونة (31 يناير 2019)

"رأيت جندياً يصوِّب نحوي سلاحه، فأطلق رصاصته، والتي اندفعت نحوي بسرعة رهيبة، كنت أتابع مسارها من فوهة السلاح إلى أن وصلت صدري وهناك انفجرت الرصاصة وخرجت منها ألوان حمراء وصفراء وأشرطـة ملوّنة".

***

الأجرام المتساقطة (2 فبراير 2019)

"رأيتُني أفتح شُبّاك بيتنا المطل على الشارع، فإذا بالنجوم والكواكب تتساقط على الأرض وتهوي بسرعة رهيبة، خفت أن يسقط أحدها على بيتنا، وسمعت صوت أمي التي كانت تنام على الأرض تقول لي: اقفل الشباك، الفجر لم يطلع بعد".

***

سونيك سرعة الضوء (3 فبراير 2019)

"رأيت فيما يرى النائم أنني أتسكع في الشارع ، وفجأة ، تذكرت أن أبي في انتظاري ليكلفني بشيءٍ ما وقد تأخرت عليه ، فهرولت، ثم ركضت، وإذا بسرعتي تزداد شيئاً فشيئاً، حتى ركضت بسرعة خيِّل لي أنها سرعة الضوء".

***

أيام الابتدائية (4 فبراير 2019)

"رأيت فيما يرى النائم أن الزمن يعود بي لأصير طفلاً في المدرسة الابتدائية، أركض في باحة المدرسة مع التلاميذ، نقفز بمرح، ويركض خلفنا المعلمون بالسياط".

***

رأسًا على عقب (7 فبراير 2019)

"رأيتني في فناء دارنا أنشر الغسيل على الحبال، فجأة تبدل الأفق وبدأ المطر في الهطول، وسمعت صوت رصاص في الخارج، كان كثيفاً، سارعت لإيقاظ ابن عمتي المرحومة والذي كان ينام على سرير في الحوش خشية أن تصيبه أو تصيبني رصاصة طائشة، إلى أن ارتجّتْ أرض حيّنا، فعلمت أن قنبلة على وشك الانفجار، وقد كان ما كان، وانقلب الوجود رأساً على عقب".

***

زهرة روما (7 مارس 2019)

رأيتني في أم درمان القديمة بين أزقتها وحواريها، والوجود كله يغني:

"بين جناين الشاطي * وبين قصور الروم

حيـي زهرة رومـا * وابكـي يا مـغروم".

***

أحلام زلوط (14 مارس 2019)

"رأيتُ الخير والنماء يعمان البلاد ، والناس يغنون ويرقصون".

***

في محبة الأطفال (20 إبريل 2019)

"رأيت فيما يرى النائم أنني أحمل طفلاً بين يدي، ألاعبه، أطعمه، وأنيمه".

***

عشاءٌ على العبّارة (5 مايو 2019)

"رأيتني مدعواً لحفل عشاء على إحدى العوامات النيلية، وصلتُ متأخراً ووجدت الحفل قد انتهى والجميع ينصرفون".

***

المسرح مرة أخرى لكن بلا دور (10 مايو 2019)

"رأيت أنني أقف على خشبة مسرح ، وسط تصفيق حاد ، أحيي الجميع".

***

اهرب... جاءت الدورية (16 مايو 2019)

"رأيت فيما يرى النائم، أنني أستيقظ من النـوم وأنـا علـى شاطئ النيـل، فأجد مجموعـة من أصدقاء الحِلّـة يلوحون لي من بعيـد، ويقولون: اهرب، دوريـة الشرطـة جاءت".

***

السلم الدائري (1 أغسطس 2019)

"رأيت أنني أركض في سُلّم حجريٍّ دائري، يهبط بي إلى مكـان عميق... عميـق... عميـق".

***

لله يا محسنين (7 سبتمبر 2019)

"رأيتني أحمـل ماعونـاً من النيكـل، أقـف عند مدخل مقبرةٍ كبيرة، أصيـح بأعلى صوتي فيجيبني رجعُ الصـدى: لله يا محسنين".

***

دراجةٌ جديدة (11 سبتمبر 2019)

"كان الجو رائقاً، وجاء لي أبي بدراجة جديدة زرقاء، لها صندوق كبير في الخلف هديةً منه، فركبتها وانطلقت بها في شوارع الحِلّة، والجو منسم هادئ، وسمعتُ في الأرجاء أذان المغرب".

***

الثالث والثلاثون من هذا الشهر (12 أكتوبر 2019)

"رأيتني مستلقياً على سريري في فراش البيت، أطالع صفحة السماء ليلاً، كانت هادئة، صافية، إلى أن ظهر أمامي فجأة، رجل حديدي بأجنحة ضخمة، قال لي سأزورك في الثالث والثلاثين من هذا الشهر".

***

منها خلقناكم (17 أكتوبر 2019)

"رأيتني أتصفح جريدةً قديمة، أقلب صفحاتها وأقرأ كيفما اتفق ، إلى أن وقعت عيناي على الآية الكريمة: (مِنْها خَلقْنَاكُم و فيها نُعيدُكُم و مِنهَا نُخرجُكُم تارةً أخْرى)".

***

قطّة سمينة (18 أكتوبر 2019)

"رأيت فيما يرى النائم انقطاع تيار الكهرباء في بيتنا بأم درمان ليلاً، وظهرت أمامي في الحوش قطة سمينة، أول ما رأيتها تسمّرتُ في مكاني واختفى صوتي نهائياً، عمّ الخدر جميع أجزاء جسمي وجعلَتْ تُمشّي ذيلها العريض المليء بالفرو على وجهي".

***

القيامة تقوم (5 ديسمبر 2019)

"رأيتني أسير قرب مقابر الحضرة في أم درمان، كان الجو عاصفاً وترابياً، سمعت صوت انفجارات متتالية، والتفت لأرى قباب القبور تتشقق وتتطاير في الهواء".

***

أصدقاء بورتسودان (19 ديسمبر 2019)

"رأيتني في المنام أزور بورتسودان بعد غياب طويل وأعانق أصدقائي القدامى هناك بقوة و محبة".

***

النيل الهادئ (20 ديسمبر 2019)

"كان ماء النيل صافيا رقراقاً ، يشعٌ ، يتلألأ ، و يضيء".

***

وليمة الذباب (18 فبراير 2020)

"رأيت الشارع مليئاً بجثثٍ آدمية وحيوانية يتهرّأ لحمُها ويعبث بها الذباب".

***

جدِّي عبدُه (22 فبراير 2020)

"رأيت فيما يرى النائم، جدي المتوفى منذ أعوامٍ طويلة، يمشي ويتعثر في فناء دارنا، فأسرعت نحوه وحملته على ظهري".

***

جارنا يموت (3 مارس 2020)

"رأيتُ جارنا يموت وأولاده يشيعونه وأمام بيتهم ترتمي جميع خِرافهم نافقة منفوخة".

***

إذا أردت أن أعيش (18 مارس 2020)

"رأيت أبي يدخل عليّ في الصالون ويخبرني أن الطبيب قال له بشأن مرضي أنه يجب أن أستأصل اللوزتين إذا أردت أن أعيش أكثر".

***

أصدقاء الثانوية (19 مارس 2020)

"رأيتني أعود للجامعة بعد غيابٍ طويل، لاقيت هناك أصدقائي القدامى في الثانوية العامة وتعانقنا بشوقٍ وحب".

***

فوقي سمكة ضخمة (23 مارس 2020)

"رأيتني أسير في ممر رملي ضيق على جانبيه بحر وكلما أوغلت في المسير، قفزَتْ فوقي سمكة ضخمة، من الشاطئ الأيسر للأيمن".

***

حيرة (4 إبريل 2020)

"رأيت فيما يرى النائم أنني في سوقٍ كبير، أبحث فيه عن شيءٍ ما ولا أجده".

***

الباقي ساعة (17 إبريل 2020)

"كنتُ أقف في طابور طويل لا أرى بدايته من نهايته، أمام إحدى المؤسسات الحكومية في أم درمان، وكل حينٍ وآخر يخرج من خلف البوابة رجل عجوز مهذب الهيئة ، يصيح ويقول: الباقي ساعة فقط".

***

بين الجيش والمعارضة (1 مايو 2020)

"رأيتني في معسكرٍ حربي، من المفترض أنه ستحصل فيه اشتباكات بين قوى الجيش وقوى المعارضة، وإذا بالجو يُشحَن فجأة وتتلون السماء بلون الدخان والقنابل، خرجت بعدها حياً، لكن مع بعضٍ من الرضوض، وبعضٍ من السحجات، وكثيرٍ من الحروقات السطحية".

***

أخي يكردح في السلم (10 مايو 2020)

"رأيت فيما يرى النائم أنني كنتُ أنزل في فندقٍ فخم ولاقيت أخي يُكردِح في السلم ولهث. قال لي على عجل: نسيتُ الحقيبة والمفتاح".

***

رجلٌ طويل في حديقةٍ عامة (13 مايو 2020)

"رأيت فيما يرى النائم، أنني أقف في حديقةٍ عامة وقبالتي رجلٌ طويل القامة يقول لي بصورةٍ حاسمة: لم يتبقّ لك سوى القليل من الوقت".

***

صديقٌ ثقيل الدم (3 يونيو 2020)

"في دنيا الأحلام كنت أقف أمام بيتنا وأتحدث عبر الهاتف مع أحدٍ من الأصدقاء الثقلاء، والذي قرر أن يزورني ذاك اليوم، فقلت له: آسف، أنا الآن في الجامعة ولن آتي قبل السابعة.

فقال: لا مشكلة سأنتظرك في محطة الفردوس أثناء عودتك ونذهب سوياً للبيت.

فقلت: لن أعود قبل السابعة على أقل تقدير.

فقال: لا مشكلة، سأزورك في يومٍ لاحق.

فأغلقتُ الخط وتنفست الصعداء وإذا بي أجده خلفي يغلق هاتفه ويكتشف كذبي عليه، ومادت بي الأرضُ حينها".

***

في العصر الحجري (17 يونيو 2020)

"رأيتني مدعواً إلى عُرس في الريف وفي طريقي إلى هناك مررتُ بأقوامٍ كُثر، ضخام البنية، سود البشرة ، طويلي الشعر، أشبه بالقردة، وأحسست لوهلة أنني في العصر الحجري".

***

النيل زاد عن حدّه (19 يوليو 2020)

"رأيت فيما يرى النائم أنني أقف مع جارتنا في الحي أمام النيل الرائق نراقبه بصمت وقت المغيب ، وقلنا بصوتٍ واحد في زمنٍ واحد: النيل زاد عن حده. ثم قفلتُ عائداً للبيت وخلفي صبية وأطفال يمرحون ويمشون ورائي".

***

رحلة العمر (1 أغسطس 2020)

"رأيت فيما يرى النائم أنني أركب أحد الكواكب ويدور بي في الفضاء، وحولي النجوم والكويكبات في كامل ألقها، وفي الوسط القمر بكامل أُبّهته وخلفه الشمس بلونٍ أصفر، تشبه القمر لحدٍ بعيد".

***

رقص (22 أغسطس 2020)

"رأيتني أرقص وأغني بحيويةٍ ونشاط غير عاديين".

***

السماء تتلوّن (23 أغسطس 2020)

"رأيت فيما يرى النائمون أهل حيّنا بالفتيحاب يخرجون من بيوتهم ذات صباح مُنسِم ويقفون في الشوارع أمام البيوت والشمس لم تطلع بعد، وكلهم يوجهون أبصارهم نحو السماء، فإذا بلونها يتغير كل مرة؛ أزرق ثم أصفر ثم وردي، وسَرَتْ فيهم رهبة شديدة".

***

لأعلى سعر (24 أغسطس 2020)

"رأيت فيما يرى النائم أخي يبيع دراجته النارية ويكتب عليها بخط عريض: لأعلى سعر".

***

تمثال أبيض في معبد حجري (25 أغسطس 2020)

"رأيتُ في دنيا الأحلام أنني في مبنًى حجري أشبه بالمعبد، حيطانه منقوشٌ عليها صور لأشخاص لم أرَ مثلهم في الوجود، وحولي تماثيل كثيرة من حجر

الجير، وعندما أردت الخروج لاستكشاف المكان استعصت علي الحركة وأدركت تواً أنني تمثال من بين تلك التماثيل البيضاء".

***

نظارتي تطير (26 أغسطس 2020)

"رأيتُ في ما يرى النائم أن نظارتي طارت عالياً ثم سقطت على الأرض مهشمة العدسات".

***

انقلاب عسكري (8 سبتمبر 2020)

"رأيتُ في دنيا الأحلام أنني في الخلاء وحولي رمال من كل مكان، وكنت أقف على طريق السفر بين العاصمة وبورتسودان أريد شراء بعض الخبز، ثم بدأ الناس في صف الرغيف بالتفرق إلى أن بقيت وحيداً والدنيا ليل، ثم رأيت في طريق السفر جنوداً كثيرين بعضهم يركب دبابات، وبعضهم في سيارات مصفحة وبعضهم يمشي راجلاً، فقال لي أحدهم:

لقد قمنا بانقلاب عسكري، وأجرينا محاكمةً سريعة لعمر البشير".

***

ادعُ له بالشفاء (30 سبتمبر 2020)

"رأيتُ في دنيا الأحلام أنني أنامُ على سرير في الشارع أمام بيتنا، فاستيقظتُ والتفتُ يساراً فرأيت البدر منيراً في السماء في كامل استدارته، والتفتُ يميناً فوجدتُ خالي المريض جالساً على الأرض يتكئ بظهره على سريري وسمعتُ صوت جارنا يأتي من خلفي ويقول لي: ادعُ له بالشفاء".

***

الأموات يزورون بيتنا (11 أكتوبر 2020)

"رأيتُ في دنيا الأحلام خالي المتوفى يزورنا في البيت في كامل صحته، فسألناه كلنا بصوت واحد: متى شُفيت يا خال؟".

***

سنضحك في وجه البارود (21 أكتوبر 2020)

"رأيتُ فيما يرى النائم أنّ عُرساً يُقام في حينا، جميع المدعوين فيه شبابٌ فقط، ثم توزعنا على الطاولات، وشممتُ رائحة بارود ورأيت طلقةً نارية رماها أحدهم تحتي، ثم سمعنا صوت مفرقعات نارية كثيرة، وبدأت تتساقط علينا المفرقعات وتتفجر وتحول المكان إلى بارود واتسخت أجسادنا بالسكَنْ والغبار، و نحن كنا نضحك بصوتٍ عالٍ".

***

فرق كبير في السن (7 نوفمبر 2020)

"رأيتني أحضر عرس ابنة جيراننا، وكنت مع بعض الفتية نسير في زفةٍ أمامها هي وعريسها، وأحزنني الفارق الكبير جداً في السن بينهما".

***

سأصير مشهورًا (10 نوفمبر 2020)

"رأيتُ فيما يرى النائم أنّني اتشاجر مع أبي، واحتدّ الكلام بيننا، فقلتُ له بصوتٍ عالٍ: سأصير كاتباً مشهوراً وأكتب عنك روايةً يكرهك بسببها كل الناس. ثم ضحكنا سوياً أنا وهو بعد ذلك".

***

غزوٌ فضائي (13 نوفمبر 2020)

"رأيتُ فيما يرى النائم أنّني أصطفُّ مع أصدقائي ليلاً نشاهد السماء، فإذا بها يظهر عليها مثلثاتٌ كبيرة بأحجام مختلفة، خضراء وحمراء وصفراء ودوائر كثيرة متموجة، وسفينةٌ فضائية خضراء عملاقة".

***

النهر الهائج (8 ديسمبر 2020)

"رأيتُ فيما يرى النائم أنّ البحر يفيض ويُغرق الشوارع والبيوت وكنتُ أسبح بسلاسة إلى أن توترتُ فجأة وطلع الماء من فوقي".

***

سيرته الأولى (15 ديسمبر 2020)

"رأيتُ فيما يرى النائم أنّ جدي المريض قد عادت إليه صحته، نبت ساقاه من جديد، ورجع بصره سيرته الأولى حاداً ونظيفاً، وكان حيوياً نشيط الحركة يرتدي بنطالاً أزرقاً وقميصاً أصفر".

***

في مشفى بشائر (27 ديسمبر 2020)

"رأيتُ فيما يرى النائم أنني في مشفى "بشائر"، تحيط بي مجموعةٌ من المتفلتين يريدون نهبي".

***

حزامٌ ناسف يطيّرني عاليًا (3 يناير 2021)

"رأيتُ فيما يرى النائم أنني أسير في شارعٍ عام، وقربي إرهابيٌّ في حزامه الناسف يذرع الشارع جيئةً وذهاباً ويمشط لحيته بأصابعه، ثم حصل ما كنت أخافه، فقد فجّر الإرهابي حزامه وطِرتُ عالياً تدفعني موجةٌ من اللهب والبارود".

***

صوتي ينشد لحافظ إبراهيم (14 يناير 2021)

"راودني في المنام أنني أقف في مكانٍ مظلم وكانت هناك إضاءةٌ دائرية في النقطة التي كنت أقف فيها، كنت ممسكاً بيدَي أختي الصغرى وكنا ندور، ونسائمُ عليلة تهبُّ من كل جهة، وخرج صوتي منتشياً منشداً من قصيدة حافظ إبراهيم:

واسقنـا يا غُلامُ حتـى ترانا

لا نطيقُ الكـلام إلا بهمسِ

وقد كنتُ أضيف عليه أبياتاً من عندي تنتهي بنفس القافية".

***

من أجل جدّتي (20 يناير 2021)

"رأيتُ في دنيا الأحلامِ أن جدي يركب جانبي في سيارة أجرة، وقد كنا نسير بسرعةٍ نحو المشفى، لكن هذه المرة من أجل أخته التي كانت تعاني من آلامٍ في الركَب".

***

رغبة مفاجئة (23 يناير 2021)

"دهمتني رغبةٌ مفاجئة للنظر في المرآة ، وعندما وقفتُ أمامها ، رأيتُ وجه أمي سعيدًا، يتلألأ".

***

عين واحدة (9 فبراير 2021)

"رأيتُ فيما يرى النائمون ، أنني أنظر إلى جدّي المتوفى وهو راقدٌ على السرير، وكنتُ أعلم جيداً أنه ميتٌ منذ ساعات، وعندما سئمتُ الانتظار وقررت أن أنهض من قربه فإذا به يفتحُ عيناً واحدة".

***

قردٌ مشاكس (13 فبراير 2021)

"كان هناك قردٌ في دارنا يشاكسنا ونشاكسه ، لكنني لم أكن مرتاحاً أثناء الحلم".

***

أشاغل الفكهانيين (20 فبراير 2021)

"كنتُ أركض وسط سوقٍ كبير للفواكه، بسعادةٍ عارمة، سعادة لم أشعر بمثلها من قبل، وكأن فرح الكون كله جُمِع في قلبي تلك اللحظة، وكنت أشاغل الفكهانيين وأغني بحبور: إزيكم، كيفنكم، أنا لي زمان ما شفتكم".

***

الأنـف العجـيب (1 مارس 2021)

"رأيتني أرى وجهي، كان أنفي ضخماً وكبيراً لدرجة أنه غطى معظم وجهي".

***

كله لخير (8 مارس 2021)

"رأيتُ فيما يرى النائمون أنّ هناك دماملاً في فخذي وساقي، فقمتُ بعصرها إلى أن خرجت منها سوائل وقيح ملأ أرضية الغرفة، وجنبي جارُنا يقول لي: كـله لخيـر، كلـه لخيـر".

***

الأموات يزعلون (23 مارس 2021)

"رأيتُ في دنيا الأحلام أنّ جدي وخالي، المتوفيَيْن، يجلسان وكلٌّ منهما يولي للآخر ظهره، وكـان خالي مستاءً جداً، قـال لي: جدك هذا كثيرُ الكـلام".

***

شرايين رقبتي (19 فبراير 2021)

"رأيتُ أنّ نابي السفلي الأيمن قد انكسر وانفجر منه الدم حتى انهارت شرايين رقبتي".

***

نبش (7 يوليو 2021)

"رأيتُ في دنيا الأحلام أنّني أقوم بنبش قبر خالي وقد كان الأمر سريعًا وسهلًا لأنه من الرمال وعندما انتهيت أخرجت عظمة صغيرة من عظامه وقلت: لم يتحلل بالكامل".

***

إيزيس لا تحب الغناء (9 يوليو 2021)

"وفي ذات المكان الذي نبشت فيه قبر خالي، وقد كان مكانه أشبه بالصحراء. رأيت أن إيزيس تلاحقنا بجنودها وتهدم فوق رؤوسنا بشاحنة بلدوزر معبدًا صخريًا. إلى أن عثرتْ عليّ إحدى وصيفاتها مندسًا في ركن من أركان المعبد. فوجهت صوبي مسدسها وقالت لي: أنت من يغني؟ وأطلقت فورًا النار على رقبتي".

***

كل شيءٍ تمام (18 سبتمبر 2021)

"رأيتُ أمي تعودُ من زيارتها العلاجية للقاهرة، واستقبلنها نساء الحي بالزغاريد والدفوف أمام مدخل البيت بالفتيحاب، فعلمتُ أن كل شيءٍ تمام".

***

طير القبة (19 سبتمبر 2021)

"رأيتُ فيما يرى النائم أن طيرًا عملاقًا أخضر يرفرف فوق قبة الإمام المهدي".

***

قندهار (2 ديسمبر 2021)

"رأيتُ فيما يرى النائم أنّ سباقاً للخيول يُقام أمام شارع بيتنا مساءً ويتقدّم كل مجموعةٍ من الخيول فيلٌ رمادي، وكان السباقُ عنيفاً جداً، ثم حصل شيءٌ ما أربك الأجواء، وهو أن مجموعةً جديدة من الخيول كانت تأتي من الاتجاه المقابل وتتصادم مع المجموعة المتجهة نحوها، وتحول الأمر من سباقٍ إلى حربٍ طاحنة، وتبودلت القذائفُ الناريّة، وامتلأ الفضاء بالصرخات، وكان الوقت ليلاً، وصوتُ فتاةٍ يصيح: قندهار ... يملأ أذنَيّ".

***

رزمة من السعادة (5 ديسمبر 2021)

"قامت يدٌ بمدِّ رزمةٍ من الأوراق النقدية إليّ، وكنتُ في الحلم في غاية السعادة".

***

تشريح داخل المسجد (8 ديسمبر 2021)

"كان أهل الحي جميعاً رجالاً ونساءً داخل المسجد، وكنا جميعاً خلف محراب الإمام وأمامنا جارتنا تقوم بتشريح جثةٍ ما بدءاً من ظهرها وتنشر بودرةً ما على الأنسجة لتحدد لنا إذا ما ماتت ميتة طبيعية أو قُتلت، وبعد لحظات انتفخت الأنسجة، فقالت لنا: ماتت مقتولة".

***

الخور الكبير (12 ديسمبر 2021)

"كنتُ في بورتسودان ، أتناقش مع جدتي حول خورٍ كبير يمتلئ ماءً وطيناً في فترةِ الأمطار".

***

بلايستيشن الأحلام (14 ديسمبر 2021)

"رأيتني مع أصحابي نقف في صف واحد أمام جسرٍ طويل متعرّج، نحمل أيادي بلايستيشن وأمامنا سيارات نتحكم بها، وقد كنا نجري خلف هذه السيارات، وفي النهاية فُزتُ بالسباق".

***

جسر القماش (29 ديسمبر 2021)

"وعلى ذات الجسر ونحنُ نعيد الكرّة، تنبهتُ إلى أن الجسر كله كان من القماش المشدود، فتضعضع وتزعزع وهوى بنا إلى أن بللنا ماءُ البحر".

***

القصر الكبير (30 ديسمبر 2021)

"رأيتُ أنني مع أصحاب الجامعة في قصرٍ كبير، وقد كنتُ مشغولاً داخل إحدى الصالات مع البروفيسور الذي نسقتُ معه لكي نراجع بعض المواضيع المهمّة، وانتظرنا أصحابي طويلاً، وقد خرجتُ من الصالة لإحضار شيءٍ ما، وعندما عدت رأيتُ أن الجميع قد حضروا وأنّ المحاضرة قد دُرّست والكل مشغولون بتناول الشاي والقهوة".

القصر الكبير-2 (30 ديسمبر 2021)

"وفي ذات القصر، في صالةٍ أخرى، رأيتني مع أصحابِ الابتدائية ونحنُ كبار، نتجوّل بين شتى أصناف الحلويات والشوكولاتة والكعك والتورتات والمخبوزات، وقد كانت جميع الحيطان الأربعة مملوءةً حتى السقف، وقد مازحتُ أحد أصحابي قائلاً له: بعد هذا لن تعود إلى أم درمان أبداً، فضحكوا كلهم".

***

الجهة الأخرى (6 يناير 2022)

"رأيتني في شارع بيتنا أقوم بتعدّي خور كبير مملوء بالماءِ الجاري، وعندما وصلت الجهة الأخرى رأيتُ أمي فانفلق فيّ حنينٌ شديدٌ إليها وضممتها وضمتني، إلى أن أحسستُ أن قضاء الله سيقع".

***

لا ألم ... لا دم (9 يناير 2022)

"رأيت فيما يرى النائم أنني أقوم بخلع ضرسي العلوي دون ألم أو دم".

***

هاتف جديد (10 يناير 2022)

"رأيتُ في دنيا الأحلام أنّ الكتمان بلغ بي حدّه، فقلتُ لأبي: أريد هاتفاً جديداً بدلاً عن هاتفي المكسور لأستطيع أن أذاكر جيداً للامتحانات".

***

رونق (15 يناير 2022)

"رأيتهم يكشفون الحجاب لي، وقد خضتُ فيه رحلةً مثيرة".

***

على حائط الحمّام (20 فبراير 2022)

"كان هناك ضبٌّ صغير لا يرضى أن يتركني وحالي، كلما رميته عنّي رجع ملتصقاً بي".

***

ضد كورونا (27 فبراير 2022)

"قلتُ لأمي: أخيرًا اقتنعتِ بفكرة التطعيم؟، قالت: نعم، وستأتي جارتنا لتعطيني الحقنة، لكنّ عينها حارّة كلما فكّرتُ أن أزورها آلمني ضرسي".

***

عمّي يقرأ لي (1 إبريل 2022)

"ناداني أبي هاشاً: ما موضوع رواية تكيّة البجاوي؟، فقلتُ له إجابةً مطوّلة لم أسمعها. قالت له جدّتي بعد أن فرغَتْ من صلاة العصر: عمّه قرأها وأشاد بها كثيراً" .

***

أكل مع الأموات (3 إبريل 2022)

"كنتُ مدعوًا لوجبة الغداء في منزل صديقٍ لي ببحري وتفاجأتُ بأنني أول الواصلين، حتى هو لم يكن موجوداً عندما حضرتُ، فنمتُ في فراشه طويلاً حتى أذّن المغرب وعندما صحيت كان كل أصحابي بالجامعة قد وصلوا، لكنني تفاجأتُ بأنني أجلس في صينيةٍ أخرى مع والده المتوفى وعمّه وليس مع أصحابي".

***

أبقارٌ عجيبة (18 إبريل 2022)

"كنتُ في مرجٍ أخضر شاسع أتدحرجُ وألهو وغلالة ضبابيّة تغطي المكان، وحولي أبقارٌ بنيّة كثيرة، نظيفة ولامعة، بأرجُلٍ ظِـبـاء".

***

النزهة (10 سبتمبر 2022)

"رأيتُني مع أخي وابن عمي في نزهةٍ إلى النيل نفترشُ ملاءةً مخططة عليها أطباقٌ من العسل والجبن ومربى المشمش، كانت يدي ملطخةً بالمربى".

***

حلَمةٌ جديدة (12 سبتمبر 2022)

"رأيتُني أكشف الملابس عن صدري وأتحسس بيدي حَلَمةً جديدة تحت حلمتي اليسرى مباشرةً".

***

المصعد (2 أكتوبر 2022)

"من المفترض أنني في مشفى وفي طريقي إلى الطابق السادس، وفي المصعد كانت هناك معي أسرةٌ في طريقها إلى الطابق الثالث، وكان المصعد يطلع وينزل بجنون ويتحرك من طابقٍ إلى طابق قبل أن نخرج منه، ومكثنا حائرين".

***

نضارة (16 أكتوبر 2022)

"في مكانِ أشبه بالحديقة، وفي طقسٍ أشبه بالخريف، وفي وقتِ كالنهار، كنا، أنا وأخي، نبحثُ عن كلٍّ منا في ذاتِ الآخَر".

***

الجائزة (17 أكتوبر 2022)

"رأيتني في مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي أتلقّى التهنئات والتحايا الطيبة بمناسبة فوزي بالجائزة، حولي أصدقائي جميعًا والأستاذ مصطفى الصاوي يصافحني بحرارة".

***

ستيلا قايتانو (9 نوفمبر 2022)

"تزورنا في بيتنا الأديبة ستيلا قايتانو وأجدها تقف مع أمي في الفناء الخلفي تتناقشان حول موكيت فاخر كان مفروشًا على سرير الحديد، فسألتُ ستيلا بحماس: متى عُدتِ من مهجرك؟".

***

الجارة (4 ديسمبر 2022)

"تقول لي أمي: جارتنا في الانعاش. فأسألها: ومالها هذه المرة؟. فتقول لي: السكّري يعمل عجايب.. الله يسترنا. وأخرجُ للشارع فأراهم يشيعون جثمان الجارة".

***

الجارة 2 (6 ديسمبر 2022)

"أرى ذات الجارة تدخل بيتها وهي في كامل صحتها، أهلها يوزعون الكرامات وتتسابق إلى أذني من فنائهم عبارات: ألف حمد لله على السلامة.. لا بأس طهور إن شاء الله".

***

ندف الغبار (8 ديسمبر 2022)

"في المنطقة الصناعية بالخرطوم كانت السماءُ محتجبةٌ بالدخاخين والأغبرة، وسألتُ ابنة خالتي: ماذا تعملين هنا؟ ألا تخافين على صدرك؟، ثم نظرنا سويًا نحو طبقات الغبار والدخان إلى أن بدأت قِطَعٌ من الدخان والغبار تتساقط علينا، تضربنا برفق وتتشتت خانقةً الأجواء".

***

الخروج (12 ديسمبر 2022)

"كنتُ في غرفتي أعيد ترتيب فراشي بعد نومٍ طويل وأحلامٍ عجائبية، كنتُ -وأنا أطبق لحافي- في حالةٍ من الخمول الجسدي والسكينة الروحية إلى أن سمعتُ صوتًا من فراندتنا جعلني أضطرب وأخاف، دنا الصوت تجاه غرفتي، تداركتُ أنه صوتُ خالي المتوفى، وفجأةً أطل بوجهه من وراء باب غرفتي فاهتززتُ واشتعلت الرهبة في كياني، هل عاد الأموات للحياة أم أنني انتقلتُ إليهم؟ وتداركتُ فورًا أنّ هذا بلا شك حلمٌ مزعج كأكثر أحلامي هذه الفترة وقررتُ الخروج من هذا الحلم، وفجّرتُ إرادة الخروج الفوري الاضطراري، وفجأةً فتحتُ عيني على سقف غرفتي وغادرتُ دنيا الأحلام وتدثرتُ جيّدا ببطانيتي من برد ديسمبر".

***

أيام حي البوسطة (13 ديسمبر 2022)

"رأيتُ صباح إحدى بطلات رواية أيام حي البوسطة تفتح البيت القديم بأم درمان، كانت على الشرفة المطلة على الجهنميّة تكنس البلاط الشطرنجي وهي تغنّي: أيامنا نسينا فيها غرامنا...".

***

عناقٌ طويل (14 ديسمبر 2022)

"أتفرّجُ على لوحةٍ في حديقةٍ عامّة وصوتُ فيروز في الخلفيّة يغني (آخر أيام الصيفية) ثم يلمس كتفي شخصٌ ما، ألتفتُ لأراه، يسقط فكي من الدهشة، ويتفجر فيّ حنين عارم ويجتاحني سيلُ ذكرياتٍ بعيدة، منذ أيام الثانوية، قبل سبع سنواتٍ من الآن على وجه التحديد، وتعانقنا طويلًا بحجم فراقِ سبع سنوات وذكرياتٍ كثيرةٍ مشتركة، تعانقنا حتى كدنا أن نلتحم".

***

حلم مزدوج (12 فبراير 2023)

"أنهض -داخل الحلم- من نومي وأجلسُ على سريري الكبير ممددًا رجليّ عليه، أجدُ على حِجري دفترً وقلمًا، أشرعُ في تدوين الحلم الذي رأيتُه، ثم ينهض نجيب محفوظ والذي كان ينامُ معي على ذات السرير، جالسًا قربي بنفسِ وضعيتي، يقرأ الحلم الذي كنتُ أدوّنه فيقول لي: هذا الحلم رأيتُه توًا في المنام!".

منشورات عندليب
للطباعة والنشر والتوزيع
www.3ndleeb.com